

إرنست رينان !



في السنين الأولى من هذا القرن كان شباب لبناني يدعى فرح أنطون يصدر في مصر مجلة صغيرة تسمى «الجامعة» ، وكانت الثقافة الغالبة على هذا الشاب فرنسية . وهو كان يكتب اللغة الفرنسية بكلمات عربية . وكان لذلك فهمه للثقافة والأسلوب والأدب يختلف عما كنا نفهمه من كتابنا المصريين البارزين الذين كانت تغلب عليهم الثقافة العربية القحة .

وقد عرفت عن طريق فرح أنطون كتاباً فرنسيين بعثوا في نفسى استطلاعاً للثقافة الأوروبية ، وغرسوا في ذهني شكاً في العقائد والعادات الشرقية ، ووصلوا بيني وبين الآداب البشرية بصلة القربى والرحم . وحببوا إلى الطبيعة ، وفتحوا عيني إلى الأجواء والآفاق ، فلا يغرب عني

نشاط فكري ، ولا يفصل بيني وبين كاتب قديم أو حديث فاصل من دين أو عنصر أو لغة . وقد رأيت في حياتي كتاباً أضلهم الاستغراق العنصرى أو الدينى أو القومى وعمرتهم موجاته . ومع أن هذه الموجات قد مستنى بطلاوتها السطحية ، فإنى سرعان ما كنت أتخلص منها بل أتطهر منها .

ذلك أن فرح أنطون قد وجهنى نحو أوروبا الجديدة ، أوروبا البشرية ، أوروبا التى كانت تسترشد بقولتير وروسو ورينان . وما زلت أذكر طرب الحماسة الذى عمرنى حين كنت أقرأ قصة صغيرة ترجمت إلى العربية باسم « الكوخ الهندى » لمؤلفها الفرنسى برناردن دو سان بيير . فقد كان هذا المؤلف يصف سذاجة العيش وجمال الحب وروعة الطبيعة بكلمات ساحرة تترك فى النفس إحساساً دينياً نحو المرأة والشجرة والسماء والأرض . كما تفتح الذهن لمعانى القناعة والاستغناء . وكان هذا المؤلف من أولئك الذين دعوا دعوة الطبيعة مع جان جاك روسو ، وأعطوا أوروبا عيوناً جديدة رأت من خلالها وعرفت بها هيئة الجبال وروعة الأشجار ، ومعنى الاصطياف على الشواطئ ، والانغماس فى الماء ، بالرجوع إلى الطفولة التى أفسدتها الحضارة ، والتى يجب ألا تفارقنا طوال أعمارنا ، فى القدرة على الاستمتاع بحبوية الحياة ولذة اللعب والنفور من تعقد العيش وارتباكات الترف المرهقة .

وهناك من لا يزالون يستصغرون قيمة الأديب العظيم فى توجيه الحضارة وتكوين الأذواق . ول هؤلاء نذكر جان جاك روسو ، فإن العالم قبله لم يكن يعرف معنى التجوال فى الحقول أو الاصطياف على الشواطئ . وهذه الحقول والشواطئ كانت مع ذلك فى مكانها كما هى الآن قبل روسو ، ولكنها كانت خالية ممن يجول فيها ويتأمل سماءها وأرضها وأشجارها أو ينغمس فى مياهها ، ولكن روسو بدعوته الحارة

إلى الطبيعة ، وتقديسه لها ، رد إلى الناس هذا الإحساس وبسط لهم مبادئ جديدة للاستمتاع النفسى كانوا يجهلون لها قبله .

وحين أجد شفيترز يدعو إلى تقديس كل شىء حتى ، وحين أجد ثورو يتساءل : لماذا لا تقرع النواقيس فى الكنائس حين تقطع شجرة من مكانها نعيماً لها وحرزاً على الطبيعة المجروحة ؟ وحين أجد غاندى يترك المدن ويقنع بأن يعيش فى كوخ بين الحتمول بثلاثة قروش فى اليوم ، وحين أجد الطرب البشرى يغمر سواحل الإسكندرية أو بور سعيد فى أطفال وفتيات وشبان يمرحون و«يزأطون» فى الماء والهواء وقد خلعوا مركبات المدنية وعادات العرف ، حين أجد كل هذا لا أتمالك أن أذكر جان جاك روسو نبي الطبيعة وأديبها ، الذى غير أذواق الناس ووجه النفوس وجهات جديدة زادت البشر سروراً واستمتاعاً وحباً .

لقد عرفت روسو ، أول ما عرفته ، بقلم فرح أنطون .

ثم عرفت أديباً آخر بقلمه أيضاً كان له أبلغ الوقع وأبعد الأثر فى ثقافتى وتربىتى . هو إرنست رينان . وهو الذى غرس فى نفسى الروح البشرى ، وبهذا الروح أحببت تلك الشخصية السامية التى وصفها رينان فى كلمات الحب والإعزاز والتى أحاول مع العجز ، ولكن مع الأمل ، أن أرتفع إلى الأخلاق التى رسمها فى شخصية المسيح .

وقد تحطم فرح أنطون بما وقع فيه من مناقشات تاريخية مع الشيخ محمد عبده بسبب إرنست رينان . وتحطم إرنست رينان بسبب كتابه عن المسيح . ومثل هذه المعارك الأدبية تحتاج إلى الشرح الذى لا يسمح له هذا الفصل . ولكن قصارى ما أقول إن فرح أنطون نقل عن رينان اضطهاد الحكومات الإسلامية للأحرار . فرد عليه الشيخ محمد عبده بأن اضطهاد الحكومات المسيحية كان أكبر وأقسى . ودارت المساجلات

بين الاثنين ، هذا يكتب في الجامعة وهذا يكتب في المنار . ولم يكن الجمهور المثقف يتحمل في ذلك الوقت الوهج الباسع من هذه المساجلات . وانهم فرح ورحل إلى أمريكا كي يعود بعد ذلك إلى مصر وينغمس في الثورة الوطنية إلى جنب سعد .

أما إيرنست رينان فكان تحطمه أكبر وأبلغ . فقد ولد هذا الأديب في عام ١٨٢٣ ومات في عام ١٨٩٢ ، وقضى من العمر نحو أربعين أو خمسين سنة وهو يخيم على أوروبا ويضئ عقولها ويربى نفوسها . وأوروبا بعده غير أوروبا قبله ، بفضل ما كتب وبفضل ما تآلم . وقد تعلم كثيراً . وما زلت أحس كأن سكيناً تمزق أحشائي حين أذكر أن هذا الأديب العظيم ، بعد أن حرّمته الكنيسة الكاثوليكية ومنعت رعاياها من قراءة مؤلفاته . وبعد أن حطت عليه الشيخوخة حتى كادت تعجده ، بعث بخطاب إلى ناظر المدرسة الابتدائية التي كان قد تعلم فيها قبل ستين سنة يطلب منه أن يأذن له بزيارتها كي يرى الفصل الذي تعلم فيه حروف الهجاء ، والتمناء الذي لعب فيه مع أقرانه ، وكى يلمس جدرانها التي تمسح بها ، ويصلى في إحدى غرفها على اختلاء ، صلاة الحب والذكرى لهذه الأيام الماضية والتي تنفصل عن حاضره بما يشبه قرناً من الزمان .

وتسلم ناظر المدرسة الخطاب . وكانت المدرسة دينية كاثوليكية ، كما كان ناظرها راهبياً يعرف أن رينان مطرود من الكنيسة وأن مؤلفاته من المحظورات . فلما قرأ الخطاب وتأمل الإحساسات الحميلة التي يحتويها كتب إلى رينان في رقة بالغة يشكره على أنه تذكر الرهبان الذين علموه طفولته ، وتذكر الأقران من الصبيان ، بل لعله تذكر صلاة الصبح التي كان يقولها في ابتهال قبل ابتداء الدروس . ثم بعد ذلك يقول له إنه لا يستطيع أن يأذن له بزيارة المدرسة لأنه . . . لأنه كافر ، مشهود من الكنيسة .

ولا بد أن رينان قد تصور على فرشه من ألم هذه الصدمة ، بل لا يد أنه بكى ، وأهمرت دموعه وبالت هذا الخطاب .

ولكن ليست هذه هي الدموع الأولى التي أهمرت من المؤلفين الذين علموا أوربا . ولولا هذه الدموع . ولولا هذه الآلام ، لبقيت أوربا جامدة متأخرة مثل الشرق .

نشأ رينان نشأة كنسية إذ تعلم في مدرسة للإهيات . ولكنه تركها وأثر دراسة اللغات والأدب . ودرس اللغات السامية وأتقن اللغة العربية ، ودرس فلسفة ابن رشد ونقلها ووضحها في اللغة الفرنسية . وقد نقل فرح أنطون عنه هذا الكتاب تلميحاً وترجمة تحت عنوان « ابن رشد وفلسفته » .

وأوفدت الحكومة الفرنسية في عام ١٨٦٠ بعثة إلى فلسطين لدراسة الآثار كان هو من أعضائها ، وكانت أخته أفریت ترافقه . وعاد إلى باريس . وحاولت الحكومة الفرنسية أن تعينه أستاذاً للغات السامية ، ولكن الكنيسة اعترضت لأنه كان قد ألف كتاباً عن المسيح بعنوان « حياة يسوع » في عام ١٨٦٣ باعتباره إنساناً لا أكثر

وتابعت مؤلفاته عن الشئون السامية : مثل « تاريخ إسرائيل » ومثل « محاورات فلسفية » ومثل « مستقبل العلم » .

وزاره جمال الدين الأفغانى فى باريس فوصفه رينان بأنه ملحد عظيم . وهنا مجال للتفكير ومراجعة الآراء فى مصر . وقد سبق أن شرح لنا على عبد الرازق (باشا) هذا الموضوع .

ولم يكتب أحد فى سحر الأسلوب الذى كتب به رينان وضوحاً ويسراً وقد قيل عنه إنه كان يفكر كما لو كان امرأة ، ويعمل كما لو كان طفلاً . وهذا أحسن أو من أحسن ما يقال عن كاتب أرصد عمره للتفكير

المثمر ، فإن المفكر العميق يجب أن يكون عميقاً أيضاً في إحساسه .
أما من حيث العمل فإن هذا ليس من شأنه . وإنما هو شأن زوجته
أو صديقه إذ ليس له وقت أو كفاءة للعمل

وكانت ثقافته تنبسط إلى الآفاق أكثر مما تسبر الأعماق . ولذلك
نجد له الاشارات والإيضاحات عن العرب والإغريق واليهود والعلم
والأدب ، ولكننا نجد أنه حين يتخصص لا يتعمق .

وكتابه عن حياة المسيح الذي ترجمه فرح أنطون إلى اللغة العربية في
تلخيص غير محل ، هو جوهرة من جواهر الأدب الفرنسي بل الأدب
العالمي . ومع أنه قد جرد شخصيته من الغيبيات فإنه أبرز ميزاته الأخلاقية
ودعوته الانسانية بحيث إن القارئ للكتاب سواء أكان تقليدياً أم
عصرياً ينتهي بالحب والاحترام إذ يجد في المسيح جمالا وفتنة كما يجد
في دعوته تحدياً لكل رجل في شرفه وأسلوب حياته .

ومن هنا بعد إرنست رينان من دعاة البشرية . وهو وإن لم يكن قد
دعا هذه الدعوة مباشرة ومواجهة . فإنه بمؤلفاته العديدة قد دعا إليها
مداورة ومواربة . إذ هو يجمع بين الأدباء والأنبياء والفلاسفة ويضعهم
جميعاً في صف لتربية الضمير البشري . فهو مسيحي مسلم يهودي بوذي ،
وهذا هو شأن الكثيرين من أدباء عصرنا الممتازين بل كذلك هذا هو
إيمان الساسة الممتازين أمثال غاندى ونهرو . بل ماذا أقول ؟

لقد كان هذا إيمان السلطان أكبر الذي حاول أن يوجد ما أسماه
« الدين الإلهي » حين عقد مؤتمراً في الهند من المسلمين والمسيحيين
واليهود والهندوكيين والبوذيين .

بل لقد كان هذا إيمان محي الدين بن عربي حين قال هذه الأبيات
الحالدة :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
وقد صار قلبي قابلا كل صورة
وبيت لأوثان وكعبة طائف
أدين بدين الحب أنى توجهت
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وألواح توراة ومصحف قرآن
ركائبه ، فالحب ديني وإيماني
أجل . دين الحب . هذا هو الذى دعا إليه رينان . وهو رسالة حياته .

obeykandl.com

دستوفسكى
ذكاء العاطفة



كان من حظى الحسن أن هبطت على الأدباء الروس وأنا حوالى العشرين ، فارتفعت بذلك إلى مستوى من التقدير للفن القصصى جعلنى فى مستقبل عمرى أتألق وأحجم عن قراءة تلك القصص الإنجليزية والفرنسية والأمريكية التى لا ترتفع إلى مقام المؤلفات العظيمة التى ألفها تولستوى ودستوفسكى وجوركى وجوجول وتيشهوف وترجنيف . والحق أن الانتقال من دستوفسكى الروسى إلى أرنولد بنيت الإنجليزى هو وثبة إلى الحضيض يفزع منها الإنسان . والانتقال من تولستوى إلى أى أديب آخر فى أوربا أو أمريكا هو انهيار فادح .

وأحياناً أحاول أن أعلل حى لهؤلاء الأدباء الروس بأن الحال الاجتماعية التى وصفوها كانت تشبه حالنا فى مصر . وأن الوسط الاجتماعى

الأوربي الأمريكي كان يجري على نظم ديمقراطية حرة لا تتيح للأوربي أن يستمرئ هذا المجتمع الروسي القديم وما حفل به من فوضى وفاقه واستسلام وركود . ولكن هذا التعليل لإحساسنا بتفوق الأدب الروسي على الآداب الغربية لا يكفي .

وقد حدث لى ما يشبه ذلك فى الموسيقى . فإنى فى مقتبل عمرى عرفت الموسيقى الأوربية الكنسية والمسرحية . فارتفع ذوقى إلى حد الكراهية ، بل العداء . للموسيقا الشرقية الباكية الجنسية المخنثة . فلست أطيق إلى الآن أغنية أو لحناً مصريين ، بل إنى أؤثر عليها « موالا » من تلك المواويل التى يغنيها فلاحوناً . فإن فيه أحياناً من الصدق والرجولة ما يبعث على الاحترام ، فى حين نشمئز من الأغانى والألحان المصرية الحاضرة لما فيها من التباكى والتخنث . ولعل ميزة أوربا علينا فى الموسيقى أنها أدخلتها الكنائس فأكسبتها شيئاً يقارب حرمة الدين ، وهذا فى الوقت الذى تركنا نحن فيه موسيقانا وأغانينا تعيش وترافق الرقص الذى كانت تمارسه البغايا . وقد كارقصاً جنسياً مخنثاً فسقطت مكانة الموسيقى والأغانى فى نفوسنا .

* * *

ولد دستوفسكى فى عام ١٨٢٢ ومات فى عام ١٨٨١ . وكان مريضاً طوال حياته ، تتنابه نوبات من الصرع . وقد أخرج قصته الأولى « المساكين » فى عام ١٨٤٦ ووثب بها إلى مصاف الأدباء الأفذاذ ، وفى عام ١٨٤٩ ألقى القبض عليه بتهمة الاشتراك فى جمعية سياسية غير مشروعة وحكم عليه بالإعدام . ثم خفف الحكم إلى النفى إلى سيبيريا حيث قضى أربع سنوات ألف عنها كتاباً يعد ذلك باسم « ذكريات من بيت الموتى » . وبعد سنوات أخرى فى الجندية والسياسة استقر على التأليف القصصى . فأخرج « الإخوة كرامازوف » وهى الأولى بين قصص العالم جميعها . وأخرج أيضاً قصة « الجريمة والعقاب » . وقد بعثنى حماسى لها

أنى فى سنة ١٩١١ ترجمت منها نصفها ثم طبعت الربيع بهذا الاسم ولم أتمم الترجمة .

وتسم قصصه بخنان ورقة يتشيعان فى نفوسنا إحساس الدين . وهى جميعاً دعوة إلى الخير وحب الأطفال وحماسة الأمومة ، ولذة التضحية ، وارتفاع عن الدنيا المادية ونحو ذلك . وقد كانت حياته هو نفسه مليئة بهذه العواطف .

• • •

ولنذكر شيئاً مما وقع له ، ولعله كان لهذه التجربة القاسية أثر فى فنه . فى يوم ٢٢ أبريل من عام ١٨٤٩ ألقى القبض فى بطرسبورج على نحو ثلاثين شاباً كان بينهم دستوفسكى ، وكانت التهمة الخطيرة التى اتهموا بها أنهم اجتمعوا واحتفلوا بميلاد الكاتب الفرنسى فورييه .

وكان فورييه مشهوراً ببرنامج يقترحه لتغيير المجتمع . وهو حين نقرأه هذه الأيام نجد فيه سخفاً عظيماً . ذلك أنه ينص على تأليف جماعات لا تزيد إحداها على ١٦٠٠ شخص يعيشون معاً متعاونين مستقلين عن الجماعات الأخرى . وقيل إن هؤلاء الثلاثين المجتمعين فى بطرسبرج قد تأمروا على ترجمة كتاب فورييه هذا ، ومما زاد فى هذه « المؤامرة » الخطيرة أن أحد الحاضرين قرأ خطاباً من أديب يدعى بيلنسكى إلى القصصى جوجول يوجه فيه لأنه عاد إلى الإيمان بعد الكفر .

وبعد أن قضى المتهمون سبعة أشهر فى السجن حكم عليهم بالإعدام ، ثم قضوا شهراً آخر قبل التنفيذ . وفى يوم التنفيذ نصبت أعمدة فى أكبر ميدان فى بطرسبرج ثم ألبس المتهمون جلابيب بيضاء وعلى رأس كل منهم طرطور وأخرجوا فى الصباح من يوم ٢٢ ديسمبر ، والثلج يغطى الأرض ، ثم حضر قسيس يحمل صليباً من الفضة ويطلب إلى كل منهم تقبيله حتى

يغفر لحم في العالم الآخر . ووقف ستة عشر جندياً يحملون البنادق ، وربط كل منهم إلى العمود كى يتلقى الأعيرة النارية . ثم أمر الجنود بفتح الأزرادة استعداداً لإطلاق النار .

وفى هذه اللحظة فقط أعلنوا جميعهم بأن القيصر قد استبدل بحكم الإعدام الحكم بالنفى إلى سيبيريا أربع سنوات .

وبعد هذه المأساة أو المهزلة سافروا إلى سيبيريا . وقبل السفر كتب دستوفسكى إلى شقيقه هذا الخطاب التالى :

« قلعة بطرس وبولس في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩ .

« أخى : صديقى الحبيب : كل شىء قد تم . وحكم على بالسجن والأشغال الشاقة أربع سنوات في القلعة (أظنها قلعة أورنبورج) وبعد ذلك التحق بالجيش جندياً . وفى هذا اليوم ٢١ ديسمبر نادونا إلى مكان العرض فى سميونوف وقرعوا علينا الحكم بالإعدام . ثم أمرونا بأن نأثم الصليب . ثم كسروا سيوفنا فوق رؤوسنا ، ثم نزعوا ملابسنا وألبسونا القمصان البيض . وبعد ذلك ربطوا ثلاثة منا إلى عمود كى يضربوا بالبنادق . وكان ترتيبى السادس ، وكان النداء على ثلاثة كل مرة . وكنت أنا بذلك فى النمرقة الثانية فلم يكن باقياً لى من الحياة سوى دقيقة : وقد ذكرتك أيها الأخ أنت وأولادك . وفى هذه الدقيقة لم أذكر سواك يا أخى وحبيبى ، وعرفت عندئذ مقدار حبي لك . وقد تمكنت من أن أقبل بلاتسياف ودوروف . وكانا واقفين جانبي وودعهما . وأخيراً تفتخ البوق وأعلن الأمر بالرجوع ، وحل الذين كانوا قد ربطوا إلى العمود .

« ثم قرئ علينا أمر صاحب الجلالة الإمبراطورية بمنحنا حياتنا ، والحكم علينا بالأحكام الجديدة . ولم يفرج عن أحد سوى بالم الذى أرجع إلى الجيش برتبته السابقة .

« وقد أبلغت يا أخى الحبيب بأنهم سيرسلوننى اليوم أو غده . وقد طلبت رؤيتك ، ولكنهم أخبرونى بأن هذا محال وأن كل ما يستطيعونه أن يسمحوا لى بالكتابة إليك . فأسرع وابعث لى الرد . وأنا أخشى أن يكون قد بلغك الحكم علينا بالإعدام . فقد نظرت من نافذة العربة التى حملتنا إلى ساحة الإعدام ورأيت فى الطريق جمهوراً كبيراً ، وخشيت أن يكون من رأونى قد أبلغوك وألوك بذلك . ولكن الآن يمكنك أن تهناً بشأنى . يا أخى . لا تظن أن الحكم قد هدنى أو غم على ، فالحياة فى كل مكان هى الحياة . هى فى داخانا وليست فيما هو خارج عنا . وسيكون قريباً منى أناس ، وسأكون رجلاً بينهم ، وأبقى كذلك إلى الأبد . ولن يهن قلبى أو تفشل عزيمتى أمام المصائب . وهذا فى اعتقادى هو الحياة أو الواجب فى الحياة . وقد حققت ذلك وصار هذا الخاطر جزءاً من لحمى ودمى . أجل ، هذا صحيح . فهذا الرأس الذى كان يبتكر ويعيش فى أسمى الحياة الفنية ، والذى حقق أسمى الحاجات الروحية واعتقادها - هذا الرأس قد قطع من عاتقى ولم يبق عندى سوى الذكريات والحيلالات التى اخترعها ولكنها لم تتجسم فى بعد . وإنى لأعرف أنها ستمزقنى ، ولكن ما يزال باقياً لى قلبى وهذا اللحم والدم الذى ما يزال قادراً على الحب والألم والرغبة . ولا تنس أن هذه هى الحياة . أجل . ما زلت أرى الشمس . والآن وداعاً يا أخى ولا تحزن من أجلى .

« والآن هلم إلى الماديات . إن كتيبى (باستثناء الكتاب المقدس الذى ما يزال عندى) وعدة أوراق من مخطوطاتى ، وتخطيط درامة ، وقصة (وقصة أخرى كاملة تسمى قصة طفل) قد أخذت كلها منى . والأرجح أنك ستتسلمها .

« وقد تركت معطى وملابسى فىمكنك أن تأخذها . والآن يا أخى أظن أننى سأمشى مسافة طويلة وأحتاج إلى نقود . أخى الحبيب : إذا

تسلمت هذا الخطاب وكان يمكنك أن تحصل على قليل من النقود فأرسلها إلى بأسرع وقت . فأنا أخرج الآن إلى المال منى إلى الهواء (لغرض خاص) . وابعث لى ببضع كلمات . ثم إذا جاءت نقود من موسكو فتذكرنى ولا تنسى . وهذا كل ما أريده ، وأنا أعرف أن على ديوناً ولكن ماذا أفعل !

« قبل زوجتك وأولادك واذكرنى عندهم كثيراً ولا تجعلهم ينسونى فعلنا نلتقى يوماً ما . أخى ، أوصيك بالعناية بنفسك وأولادك ، وأن تعيش فى هدوء ويقظة ، وأن تفكر فى مستقبل أولادك . عش عيشاً إيجابياً . إنى ما شعرت قط بوفرة الحياة الروحية فى شخصى كما أشعر بها الآن وأنا مريض بالاسخربوط ، ولكنى لا أبالى بذلك . أخى ، لقد كابدت من الحياة الشىء الكثير حتى ما يكاد شىء يخيفنى الآن فى العالم . فليكن ما هو كائن . وسأكتب إليك فى أول فرصة ، وابعث لأسرة مايكوف بتسليماتى وتحياتى واشكر لهم اهتمامهم بحظى ، وقل ببضع كلمات حارة يملها عليك قلبك ليوجينيا بروفنا .

« فأنا أدعوها بالسعادة وسأذكرها على الدوام بجميلها . واضغط يد نيكولاى أبولو نوفتش أبولون مايكوف وجميع الآخرين . وابحث عن يانوفسكى واضغط يده واشكره ، وأخيراً صافح جميع أولئك الذين لم ينسونى ، وقبل أخى كوليا . واكتب خطاباً إلى أخى أندريه وأخبره بكل شىء عنى واكتب لعمى وعمتى ، وافعل ذلك باسمى . وابعث لهم تحياتى واكتب لأخواتى اللواتى أدعوهن بالسعادة .

« وربما نلتقى يا أخى فى المستقبل . لاتهمل العناية بنفسك بل عش وابق حياً حتى نلتقى ثانياً ، فعلنا نتعاقب يوماً ونذكر شباننا ذلك الوقت الذهبى ، ذلك الشباب وتلك الآمال التى أمزقها الآن من قلبى ودعى كى أذفها . . .

« هل يمكن حقاً أنى لن أتناول القلم بيدي مرة أخرى؟ أظن أنى سأعود إلى الكتابة بعد هذه السنوات الأربع وسأرسل لك كل شيء أكتبه إذا كتبت شيئاً . وارباه ! كم من خيالات عشت فيها أو اخترعتها ستموت وتنطفى في دماغى ، أو تتمزق وتسير في دى كآلسهم . أجل . إذا لم يسمح لى بالكتابة فإنى سأموت . وخير لى من ذلك أن أسجن خمس عشرة سنة ويكون فى يدي قلم .

« اكتب لى كثيراً ، واكتب بالتفصيل والإسهاب واذكر لى حقائق .. حقائق كثيرة . وفى كل خطاب اكتب لى عن شئون الأسرة مع التفصيل ومع ذكر الأشياء التافهة . ولا تنس هذا فهذه الخطابات تعيد لى الرجاء والحياة . آه لو تعرف كيف أحييتنى وأتعستنى خطاباتك التى أرسلتها لى وأنا فى هذه القلعة ، وقد كان الشهران والنصف شهر الماضىة ، حين منعنا من كتابة الخطابات أو تسلمها ، من أشق ما كابدته . وقد كنت مريضاً .

« ولا أهملت أنت إرسال النقود لى ساورنى القلق من أجلك لأنى فهمت من عدم إرسالك للنقود أنك أنت فى حاجة شديدة . قبل الأطفال مرة أخرى ، فإن وجوههم الحلوة الصغيرة لا تغيب عن بالى . لتكن لهم السعادة ! وأنت يا أخى كن سعيداً . كن سعيداً .

« ولكن لا تحزن ، وبجيبك الله لا تحزن لأجلى ، وثق أنى لم آهن وتذكر أن الرجاء لم يهجرتنى ، وبعد أربع سنوات سيخفف عنى ما فعلته الأقدار وأصير جندياً فينقضى سجنى . وتذكر أنى سأعانقك يوماً ما . لقد كنت اليوم فى قبضة الموت ثلاثة أرباع الساعة ، وعشت هذه المدة بهذا الحاطر وبلغت آخر لحظة من الحياة . وها أنا ذا حتى مرة أخرى .

« وإذا كان أحد يتذكرنى بسوء ، أو إذا كنت قد تشاجرت مع أحد

أو أسأت إلى أحد ، فأخبره إذا لقيته بأن ينسى الإساءة وليس في نفسي مرارة أو نغمة على أحد ، وأود لو أعانقني في هذه اللحظة كل واحد من أصدقائي السالفين . وقد شعرت اليوم بالراحة وأنا أودع أحبائي الأعزاء قبل الموت ، وخطر ببالي في هذا الوقت أن أخبر إعدائي سيئتك . ولكن استرح الآن فإني ما زلت حياً . وسأعيش راجياً بأن أعانقك يوماً ما . وهذا كل شيء في بالي الآن .

« ماذا تفعل . وبماذا فكرت اليوم ، وهل عرفت شيئاً عنا ؟ وماذا كان مقدار البرد اليوم . آه ما أشوقني إلى أن يصل خطابي هذا إليك بسرعة ، وإلا فإنه إذا تأخر فإني سأبقى أربعة أشهر بدون خطاب منك . وقد رأيت الظروف التي أرسلت فيها النعمود لي مدة الشهرين الماضيين وكان عنواني مكتوباً عليها بخطك وسررت برؤية الخط .

« وعندما التفت إلى الماضي وأتذكر مقدار الوقت الذي ضن عبثاً وكم منه ضاع في الأوهام والكسل والجهل بالعيش ، وكيف أتى لم أقدر الوقت حق قدره ، وكيف جنيت على قلبي وذهنى ، أحس بأن قلبي يسيل دماً . أجل إن الحياة عطية وهي سعادة وكان من الممكن أن نجعل من كل دقيقة منها عصراً طويلاً من السعادة .

« آه لو عرف الشباب . . . ! . والآن هذه حياتي تتغير وأنا أولد من جديد في شكل آخر . أخى . أقسم لك أنني لن أفقد الأمل وسأصون روحي وقلبي في الطهارة ، وهيلادى الجديد سيكون إلى حال أحسن من حالي الماضية . وهذا كل رجا . وهذا كل عزائي .

« إن حياة السجن قد قتلت في جسمي مطالب اللحم التي لم تكن كلها ظاهرة ، ولم أكن قبل هذه الحياة أعنى بنفسى كثيراً . أما الآن فالحرمان لا قيمة له عندي ولذلك لا تخش على من المشاق المادية وتحسب

أنها ستقتلني . كلا ، لن يحدث هذا .

« وداعاً . وداعاً يا أخي . إني أعانقك بقوة وأقبلك بحرارة ، تذكرني ولكن بلا ألم في قلبك ، فأرجوك ألا تحزن . وفي الخطاب الآتي سأخبرك بما يتم لي . . . وتذكر عندئذ ما أخبرتك به : لا تعش جزافاً دائماً . دبر حياتك ورتب حظك وتفكر في أولادك ، آه لو أراك . وداعاً . إني أنزع نفسي الآن من كل شيء أحببته . وهذا النزاع مؤلم . ون الموجع أن أقطع نفسي نصفين وأشق قلبي شقين . وداعاً . . . وداعاً . ولكني سأراك . أنا واثق ، واع أنا فلا تتغير ، وأحبنى ، ولا تدع ذاكرتك تبرد . . . وذكرى حبك ستكون أحسن شيء في حياتي . . . ومرة أخرى وداعاً . وداعاً . وداعاً وداعاً لكم جميعاً » .

أخوك

فيلدور دستوفسكى

« لما قبض على أخذوا مني كتباً عدة ولم يكن بينها سوى كتابين ممنوع تداولهما . فهل لك أن تطلب الباقي لنفسك . ولكن لي طلباً ، وهو أن أحد الكتب يحتوى على مؤلفات فاليريان مايكوف . وهو مقالاته الانتقادية . وهذه النسخة كنت أخذتها من أوجينيا بتروفنا . وكانت تعدها كنزاً . وقد أقرضتها لي ، ولما قبض على طلبت من الشرطى أن يرد إليها الكتاب وأعطيته عنوانها . ولا أعرف إذا كان قد رده . اسأل عن ذلك لأنى لا أحب أن أحرمها هذه الذكرى . وأخيراً وداعاً . وداعاً » .

أخوك

ف . دستوفسكى

« على الهامش : لا أعرف هل أمشي أو أركب فرساً . وأظن أنهم سيركبون الخيول . ربما . قبل يد إيميلي فيدروفا وقبل الصغار واذكرني عند كريفسكى . اكتب لى عن القبض عليك وحبسك والإفراج عنك »

* * *

هذا الخطاب هو جزلة حية ترشح بالدم من نفس دستوفسكى .
تمتاز قصص دستوفسكى بأن أشخاصها يتسمون بالإحساس والذكاء
معاً ، فإن بطل « الجريمة والعقاب » طالب في الجامعة يتأمل ويتفلسف
ويتساءل ! لماذا لا يقتل هذه العجوز الثرية المقتررة التي لا تزيد قيمة
حياتها على حياة برغوث ؟ أليس هو أولى بثرواتها ينفقها في الخير
والنفع ؟

ثم يقتلها . ثم يعود إلى التأمل والفلسفة فيسلم نفسه في النهاية إلى
البوليس حيث يحاكم ويحكم عليه بالنفى إلى سيبيريا . ويرضى لنفسه هذا
المصير لأنه وجد شيئاً أكبر من ذكاء العقل هو ذكاء الإحساس .

وسائر قصصه على هذا الغرار ، إحساس فوق الذكاء ، وخيال فوق
العقل . وقصصه تكاد جميعها تخلو من العقدة إلا التمليل جداً . وفي النهاية
نجد أنه يهدف إلى خيال الشعر . فهو يتناول الواقع ثم يسير به نحو
آيات من الفن والشعر . وهذا هو ما يجب أن يكون . لأن القصة هي
التفسير الخيالي للحياة حيث يرتفع المؤلف بالواقع إلى المثليات فيكسب
هذا الواقع دلالة جديدة . فالفتاة التي تباع عرضها كى تنقذ إخوتها من
الجوع ، والسكير الفاني الذي يتعلق بالدين ولا يزال يؤمل الآمال ،
والراهب الذي يحب ولكنه لا يسقط ، والشاب الذي يملأ الشرف صدره
فيذهب إلى أحد الأثرياء ويعرض عليه في غرارة وسداجة مشروعاً
للخير فلا يجد سوى الاستهزاء ، والأبله الذي يؤمن بالعلم فيرتكب

جريمة الاغتتيال استناداً إلى العلم . . . وهذا يذكرنا بالبله العلماء الذين اخترعوا القنبلة الذرية !

كل هذا يقع في قصص دستوفسكى . وهو بقرط حنانه وجمال خياله قد يناقض العقل والمنطق ، ولكن كما كان يناقضه غاندى أو تولستوى . . . وقد كسبت من دستوفسكى أكثر مما كسبت من غيره ، وهو ذلك الإحساس الأدبى الذى لا يختلف من الإحساس الدينى أو الموسيقى . . . وذلك أننا إزاء الدين والأدب والموسيقا لا « نعرف » وإنما نحس . وقد قلت فى أول هذا الفصل إن هبوطى المبكر على القصصيين الروس قد جعلنى أستصغر شأن الأدباء الأوربيين والحق أنى قرأت برنارد شو ، وولز ، وديكنز ، وأناطول فرانس ، وأندريه جيد ، وكثيراً غيرهم فكان تقديرى لهم اجتماعياً أكثر مما كان أدبياً . وقد وجدت عندهم الرأى والمعرفة أكثر مما وجدت الفن والإحساس . وعندما أتأمل هؤلاء الأدباء الروس جميعهم ، حتى مكسيم جوركى ، أجد أنهم ينشدون الدين ، فإن الإحساس الدينى البشرى فى هذا الكاتب الأخير على الرغم من إلحاده كبير جداً . وقد استطاع دستوفسكى وتولستوى أن يجعلا المسيحية ديناً وأدباً معاً ، بل إنهما أبرز الميزة الأصلية لهذه الديانة وهى الحب البشرى العام أكثر مما أبرزها كهنة هذه الديانة أنفسهم .

كان دستوفسكى يكره الشبان الثائرين على القيصر ، وكثيراً ما نجد فى قصصه ثائراً أو أكثر يستهزئ بأفكارهم ويسخر من عقائدهم . ولكن كراهيته لهم لم تكن تستند إلى حبه للنظام الاستبدادى الذى كان يسود حكومة القيصر ويوجهها ، وإنما كان يكره أوربا أيضاً لهذا السبب . وقد دعا إلى مقاطعة الثقافة الأوربية فى الوقت الذى كان يدعو فيه تورچنيف إلى اعتناقها .

وعندما نتعمق أقوال دستوفسكى لا نملك الإحساس بأنه يكره

العلوم المادية جميعها ويكره الحركات الاجتماعية الارتقائية القائمة عليها ، وأن في نفسه شوقاً ملحاً إلى أن يعيش الناس في إيمان بالله قانعين بكلمات الإنجيل التي يجب أن تكون الأساس الذي تنبئ عليه الأخلاق .

وقد عجز دستوفسكي عن أن يفتن للحقيقة الأوربية البازغة وهي أن الأوربيين قد شرعوا منذ أوائل القرن التاسع عشر في استبدال الرؤيا البشرية للرق والأخلاق والدين برؤيا الكنيسة . وأن الإحساس الديني البشري الجديد ، على الرغم من أنه لا يزال ضعيفاً ، يجد أنصاراً أقوياء يسلكون في حماسة وحب للبشر ويخدهون ويضحون للإنسانية .

ولكنه فطن إلى أن علماً بلا دين هو دمار بشري عام . بل نستطيع أن نقول إنه بصر بقوة العلم الطاغية في القنبلة الذرية التي يخرج بها طيار يشرب كأساً من الكونياك في نزع ومجانة ثم يقتل ثمانين ألف إنسان في ثانية ويعود ضاحكاً إلى معسكره كما حدث في هيروشيا في أغسطس من عام ١٩٤٥ .

بعد أن قضى دستوفسكي مدة عقوبته في سيبيريا وأفرج عنه كتب إلى السيدة فون ويسين خطاباً جاء فيه :

« ... ومع ذلك فإن الله يمتعني أحياناً بلحظات من الهدوء الكامل : وفي هذه اللحظات أجد الإيمان الذي يتجلى لي فيه كل شيء في وضوح وقداسة . وإيماني هذا في غاية البساطة ، وهو أنني أعتقد أنه ليس هناك ما هو أروع وأحب ، وأعقل ، وأشجع ، وأكمل ، من المسيح . وليس هذا فقط بل إنني لأقول لنفسى في إحساس الحب الغيور إنه لا يمكن أن يكون هناك شيء . أكثر من هذا ، وهو أنه لو أن أحداً قال لي : المسيح يجافي الحق ، ولو أن هذا القول كان صحيحاً ، لآثرت البقاء مع المسيح على التزام الحق » .

وقصص دستوفسكى جميعاً تنشُد الإيمان الذى يستطيع أن يستقر به الإنسان على هذه الدنيا حتى ولو كان هذا الإيمان يخالف منطق العيش وأسلوب البحث العلمى .

وقد وجد دستوفسكى حافظاً عظيماً للاعتماد على الإيمان ، هو هذا الاختبار المؤلم حين وقف أمام الجنود ينتظر إطلاق النار . فإنه بى طوال عمره بعد ذلك ينظر إلى الحياة من موقف الموت ، وهو موقف جدير بأن يغير النظرة والنبرة للحياة معاً . وواضح أنه لم ينسه بتاتاً فى كل ما كتب .

وأكاد هنا أقول إن الدين ليس شيئاً آخر سوى النظر إلى الحياة من موقف الموت . فإن الموت أكبر حقيقة بشرية . وهو عندما نتأمله نجد أنه يغير القيم والأوزان ويحييها من التقدير الاجتماعى إلى التقدير البشرى . فنحن فى هرولة الحياة الاجتماعية نتعب ونلهث لأجل الثراء أو الوجاهة أو نساق فى أنانية بشعة لا نبالى بمصالح الغير ولا نرحم من ندوسه فى سبيل الاقتناء أو التغلب . وكلنا على هذه الحال بدرجات متفاوتة ، ولكن فكرة الموت تنقذ فجأة فى أذهاننا فنقف فى طريق الحياة ونتساءل عن نهايته . وهذا وجدان أكبر الوجدان بالحياة التى تتخلص عندئذ من ملابساتها الاجتماعية . وعندئذ نحس كما أحس دستوفسكى ، بل كما يعلم ويكرر فى جميع قصصه ، إننا نحن بنو البشر كيان واحد قد تعددت أجزاؤه وانفصلت ، ولكن انفصالها لم يمنع بينها التراحم والحب والحنان . فكلنا عندئذ ، بعد تأمل الموت ، أب وأم وأخ لأبناء البشر جميعاً .

وهذا هو إحساس المسيح ، وغاندى ، وتولستوى ، بل قولتير وروسو وشثيترز . بل كل إنسان استطاع أن يقف عن هرولته الاجتماعية ويتأمل حقيقة الموت . أجل إن تأمل الموت هو كشف دينى . كأنى

— حين أوقن أنى فى إحدى اللحظات سأفارق هذا العالم فلا يبقى لى فيه جسم أو اسم أو ذكرى — لا أسأل عندئذ عن هذا الرجل هل هو باشا أو بك ؟ وثرى أو فقير؟ وهل يملك ضيعة أو أتومبيللا أو قصرأ ؟ وإنما أسأل عن ميزاته الإنسانية . بل إنى لأهتم به وأأمله كثيراً عندما أعرف أنه يحب الزهور ، ويحنو على الأطفال ، ويفرح لرؤية الشفق ، وتلمتع فى ذهنه أشعة الذكاء وشهوة الحرية ويحس قرابته للحيوان بل للنبات .

إن يقيننا بالانعدام بعد الموت يزيدنا وجداناً بالحياة . وهذا هو إحساسنا عندما نقرأ دستوفسكى ، فإن الحياة تصخب حولنا وتكاد تتجمع فى بركان تحتبس فيه العواطف ثم تنفجر .

ومع أن القارئ لقصصه يحس من وقت لآخر أن إيمانه بالله يتزعزع ، هنا وهناك ، فإن إصراره على الإيمان يتكرر فى لهجة التأكيد والغضب من المنطق العلمى وتفشى المادية الأوربية . فهل نستطيع أن نفسر ذلك بأن رهبة الموت حين وقف لتلقى النار قد حملته أيضاً على التشبث بالإيمان فراراً من معانى التملق والشك والخوف ، وجميعها من معانى الموت !

قد يكون ذلك ، ولكن هذا الإيمان قد جعل قصصه تذوب ، رحمة وحناناً وإخاء وبراً حتى لنحس ونحن نقرأها هذه الفضائل تسرى فى كيائنا ، كما لو كانت بلسماً ، وترفعنا فوق أنفسنا .

* * *

لا نتمالك ونحن نقرأ دستوفسكى أن نقارن بينه وبين نقيضه نيتشه . وقد عرف داعية القوة وعدو المسيحية داعية الرحمة والمسيحى الأول من إحدى قصصه . والعجب أننا على الرغم من هذا التناقض بينهما

نجد اشتراكاً في الأسلوب الفكرى ، حتى لقد أحب نيتشه دستوفسكى وقال عنه : هو الإنسان الوحيد الذى علمنى شيئاً عن السيكولوجية .

وهما يشتركان فى الكراهة للحضارة العصرية ، ولكن لسببين متناقضين . فإن دستوفسكى يكره أوروبا لأنها تركت الإنجيل والمسيح ، ونيتشه يكرهها لأنها اعتنقتهما . فالأخلاق العامة فى أوروبا تحولت فى رأى دستوفسكى إلى أخلاق المادية العلمية والمباراة الاقتصادية والبعد عن الإخاء والرحمة . ونيتشه يكره الأخلاق الأوروبية لأنها ابتعدت عن الفطرة الحيوانية واستبقت الضعفاء والعجزة والمرضى الذين يفسدون المادة البشرية ، لأنها أخلاق مسيحية !

ولكنهما يتفقان من حيث إن لكل منهما رؤيا بشرية ، فكلاهما حالم ، ولكن حلم دستوفسكى هو المسيحية العامة ، وحلم نيتشه هو تنازع البقاء . وقد قال كلاهما : إن البطولة خير من السعادة .

ولكن البطل عند دستوفسكى هو ذلك الذى يضع إحساسه البشرى فوق عقله المنطقى . والإحساس هنا هو الرحمة والحب . وكذلك نيتشه يزدري العقل والمنطق ، ويقول بالإحساس ولكن إحساسه هنا هو أن الصقر يجب أن يأكل العصفور ولا يرحم .

لقد انتهى رسكلنيكوف فى قصة « الجريمة والعقاب » الذى قتل العجوز كى يحصل على مالها إلى أن يجحد عقله ويعود إلى إحساسه ويرضى بالتكفير عن جريمته فى سينيريا . ولو أن نيتشه كان قد ألف هذه القصة لسخر من هذه النهاية . ولكنه ، مع سخره هذا . لم يكن ليقبل قتل العجوز لأنه لم يكن داعية للفوضى ، وإنما الأغلب أنه كان يطلب نظاماً اجتماعياً منطقياً يئدى إلى الاستغناء عن العجزة الذين انتهى نفعهم للبشر .

وحيث نقرأ قصص دستوفسكى لا نتمالك أن نحس أنه يريد أن نفهم منه أن الإنسان مزيج من الخير والشر ، وأن في نفس المجرم الآثم أو الشرير التمارح جواهر من الشرف والبر . وهذا صحيح .

وثلاثة يمثلون العبقرية البشرية ، هم نابليون الذى يمثل عبقرية الإرادة ، وأينشتين الذى يمثل عبقرية الذهن ، وأخيراً دستوفسكى الذى يمثل عبقرية الإحساس .



تورو
ونداء الطبيعة

سبق لى أن أوضحت بعض الأسباب التي تجعلني أحب أحد المؤلفين دون الآخرين . ولكن هناك حالات من الحب تتعمق قلبي وتتغلغل في خالايانخي بحيث أعجز عن التحليل ، فلا أصل إلى الجذور التي تربطني بأحد المؤلفين . وقصارى ما أقول عندئذ إنى أحبه كما أحب اللحن الموسيقي العظيم ، أو أعجب به كما أعجب بالتمثال الرائع . وأتعلق به برباط من الحنان كما لو كان هذا المؤلف أباً أو أمماً .

فإنى أعجب بتولستوى مثلاً لأنه ألف قصة خالدة رائعة تدعى « أنياكار نينا » هي في الذروة من الفن . ولكن حبي له لا ينبى على هذه القصة وحدها . بل أخرى أن تبعث هذه القصة في نفسى إعجاباً بقدرته... ولكنى لا أحبه لأنه قادر فقط وإنما لأنه ضعيف عاجز أيضاً ، قد ارتكب

أخطاء وتورط في مشاكل لم يعرف كيف يتخلص منها . فإحساسى نحوه هو الحنان والرفقة . هو عندى : بابا تولستوى ، لهذه الأخطاء والتورطات نفسها .

عاش تولستوى عيشة الفسق وهو شاب : ثم حاول أن يكون شيخاً طاهراً وأسرف في معنى الطهارة حتى قال - وحاول أن يمارس ما كان يقول به - إن الزوج يجب ألا يتصل بزوجه إلا بغية التناسل . ولكنه أخفق ، إذ كان يصارع جسده وهو فوق السبعين . ويعود من هذا الصراع خائباً .

وقضى شبابه وهو لا يكاد يدري أن في هذه الدنيا أدياناً يؤمن بها الناس ويجعلون منها دستور حياتهم . حتى إذا اكتمل شرع يشتغل بالدين ويحاول الإيمان ، فإذا به يتورط في ارتباكات ذهنية وعادات سلوكية انتهت به آخر حياته إلى اثني عشر يوماً من الضلال والدمار ، ثم الموت . . .

وكان شريفاً له لقب كونت ، وعنده آلاف الأفدنة ، يستغل عشرات الفلاحين في زراعتها . ثم انبج له نور جديد ، فإذا به يجمع هؤلاء الفلاحين ثم يعرض عليهم أن يوزع الأرض بينهم إذ لا حق له في استغلالهم . ويغادر الفلاحون منزله وفي نفس كل منهم شك أو شبهة في سلامة عقله ، ثم تدرى عائلته بما جرى في هذا الاجتماع فتكفه عن التصرف وتمنعه من التنازل عن أرضه ، وتستمر على الرغم منه في استغلال الفلاحين .

وألف عشرات القصص الخالدة ، وكلها فن ومجد وحب . ملأت الدنيا موسيقى وأدخلت السعادة إلى قلوب الملايين من البشر . ثم يختمر في نفسه الإيمان بالحديد بأن الناس لا يحتاجون إلى الفن وإنما يحتاجون

إلى الحنان والخير والقناعة وسداجة العيش . . . فيكف عن التأليف ويرفض أن يتناول قرشاً من أرباحه من هذه القصص .

ثم لا يكتفى بهذا بل يعتمد إلى شراء الجلود ويصنع بيديه أحذية للفلاحين ، لأن صنع حذاء يدق قدم الفلاح خير من إخراج كتاب يجد فيه القارئ لذة فنية !

وتثور العائلة في وجهه ، وتضرب عليه حصاراً حتى لا يتورط في عمل أرعن جديد .

وكان له صديق طبيب من أولئك الرجال الذين يحابى القدر بهم بعض الناس ، فهم حب وإخلاص وتضحية . وهم سعادة لأصدقائهم ونور للعقل والقلب .

وكان تولستوى إذا جاءه هذا الصديق شهق شهقة الخلاص . فهو يستقبله ويدخله غرفته ويقفل الباب ، ويبقى الاثنان يتناجيان .

ولكن زوجة تولستوى لا تطيق كل هذا الحب ينحرف عنها من زوجها إلى هذا الطبيب فهي تغار وهي تحقد . ثم تنفجر ، فتكتب في مذكراتها بأنها نظرت من صير القفل ، ولا تشك في أن بين تولستوى وبين هذا الطبيب حباً جنسياً شاذاً . وكلا الرجلين قد أوشك على الثمانين . . . وهذا حقد الغيرة ، وعمى الغيرة ، وكفر الغيرة !

ويستقر في ذهن تولستوى أنه قد فشل في حياته . فلا هو استطاع أن يوزع الأرض على فلاحيه ، ولا هو استطاع أن يؤمن بالإيمان الساذج الذي كان ينشده بإحساسه . ولا هو قادر على أن يعيش العيش الساذج الذي قال به ودعا إليه . بل إن نفسه لتنهو حتى وهو في هذا النسك إلى أن يؤلف قصة غرامية . وأنه مع دعواه بأن التناسل هو الغاية المفردة من التعارف الجنسي ليتقدم في ذل إلى زوجته .

والدنيا حواه في آلام : فقر وجوع وذنس وظلم . أجل ، ليس له الحق في أن ينعم بطعام طيب أو فراش دافئ . وهو يحس أنه قد اقترب من الليل الطويل والنوم الأخير ، وأنه يجب أن يتنكر الإنكار العظيم لحياته الماضية وأن يفرض الدنيا إلى . . . إلى الله .

وكيف يفرض إلى الله هذا الشيخ الذي بلغ الثانية والثمانين ؟

في الساعة السادسة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر من عام ١٩١٠ تأتي إليه عربته التي ينتظرها بميعاد ، ويحرص الحوذى على الصمت والسكون حتى لا يستيقظ أحد آخر ثم تسير به العربة إلى محطة السكة الحديدية ، فينزل ويجد صديقه الطبيب في انتظاره ، ويأتي القطار فيركبان في إحدى عربات الدرجة الثالثة .

وينزل كلاهما في إحدى المحطات ، ويسيران إلى دير حيث تستقبلهما الراهبات .

ولكن لا تمضي أيام حتى تعرف ابنة تولستوى ، وهي فتاة في السادسة والعشرين ، مكانه . فتذهب إليه وتدخل الدير وتقف إلى جنب والدها . ولكنه هو يحس من هذه الزيارة أن الدنيا قد شرعت تجره إليها بعد أن تركها . فهو يستيقظ في الرابعة من الصباح ، والثلوج تكسو روسيا بأجمعها . فيفر مرة أخرى مع ابنته والطبيب .

ويحس قشعريرة تلجئه إلى أن يرتاح في غرفة بإحدى محطات السكك الحديدية . وبعد أيام ، بين يدي ابنته ، يموت . . . يموت موتاً عظيماً بعد أن عاش حياة عظيمة .

لقد ألف تولستوى عشرات القصص الجميلة . ولكن قصة حياته أجمل بل أخلد .

إنها كانت جهاداً شاقاً وأخطاء متوالية في سبيل الحق والشرف .

ونحن أعجز من أن نهج هذا النهج في الحياة . ولكن هذا العجز يزيدنا حباً له . وحياته هي رؤيا دأمة . هي دعوة إلى أن نتحرى الحق ونجرب التجارب في العيش ، فننفض العادات ، وانتقاليد ، والعرف ، إذا لم نجد أنها تلائم العيش المثمر البار .

وتجارب العيش هي في النهاية أئمن ما نطلبه من المؤلف أو المفكر ، ونحن ننتفع ونسترشد بحياة المؤلف كما ننتفع بمؤلفاته ، بل ربما أكثر لأن حياة المؤلف هي نهج جديد للبشر .

وكثيراً ما أقارن بين حياة قولتير ومؤلفاته ، فأجد أن كفاحه الشخصي للتعصب الديني قد ربي أوروباً وعلمها معاني جديدة لشرف الفكر . رباها وعلمها بأكثر مما ربتها وعلمتها مؤلفاته ، وكذلك الشأن في حياة غاندى أو شقيتزر .

ذلك لأننا لسنا واثقين بأننا نعيش في حضارتنا الراهنة الحياة الفضلى على المستوى الأرحب . ومن الحسن أن نصدم من وقت لآخر بمن يوضحون لنا الخطأ والخطل في عيشنا الحاضر . أو على الأقل يغرسون الشك في نفوسنا حتى لا نسرف في عاداتنا الاجتماعية الموروثة ونتقيد بها كما لو كانت شعائر دينية . فمجتمعنا الذى نعيش فيه مثلاً هو مجتمع اقتنائى يعلمنا كيف نقتنى ، ويغرس في نفوسنا عواطف الكسب والجمع والغيرة والحسد . وكثيراً ما نسير إلى أقصى حد مع هذه العواطف فنقع في هموم هي سموم تأكل في نفوسنا وأجسامنا معاً ، ونشقى بما نقتنى .

وقد رفض غاندى أن يعيش وفق المبادئ التى يدعو إليها هذا المجتمع فقنع من الدنيا بشملة وعذرة ، وعاش سعيداً إلى سن الثمانين تقريباً . ولعله كان يعيش أكثر لو لم يقتل . وكانت له مبادئ في الخير والبر والإخاء والحب هي ثمرة هذا العيش الساذج ، أو على الأقل كانت بعض

ثمرته . . . لأننا يجب ألا ننسى أن أسلوب عيشنا « يكيف » أفكارنا ويعين أخلاقنا إلى حد بعيد ، وأسلوب الاقتناء في العيش يبعث الطمع والحسد ، وأسلوب القناعة في العيش يبعث الطمأنينة .

• • •

وإني أذكر هنا رجلاً جرب تجربة في العيش كانت إلهاماً لغاندى هو هنرى ثورو الكاتب الأمريكى . الذى كسب غاندى عنه أسلوب العيش ، كما أخذ عنه شعار الثورة الهندية على الإمبراطورية البريطانية ، وهو « العصيان المدنى » .

وقد كان هنرى ثورو يقصد من هذه العبارة إلى أننا نكون أحراراً بحيث لا يربطنا المجتمع بعاداته وأهدافه وأساليبه وقيمه ، لأن لكل منا حق الاستقلال فى تنظيم عيشه وفق مبادئه الشخصية ، حتى حين يخالف العرف المألوف . وقد خرج غاندى هذه العبارة تخريباً آخر هو أن الهنود يجب ألا يتعاونوا مع الإنجليز .

ولد ثورو فى عام ١٨١٧ ومات فى سنة ١٨٦٢ . وقد ألف كثيراً ، ولكن ميزته أنه أدخل الطبيعة فى الأدب الأمريكى ، وأثار الوجدان لجمال الريف والغابة والطير والوحش . وكان الروح التجارى والاقتنائى فى أيامه على أشده فى الولايات المتحدة . فعمد هو إلى صده ، وترك المدينة وأقام فى الغابة . وكتابه « والدين » هو أثره العظيم الذى يذكر لنا فيه تجاربه وإحساساته عن هذه الحياة الفطرية التى عاشها .

وهو يقول عن تجربته هذه : « لقد أردت أن أعيش عن قصد ، وأن أجابه ، حقاً ، عمق الحياة الأصلية فقط . كى أعرف ما يمكن أن تعلمنى هذه الحياة . حتى إذا قاربت الموت أكون واثقاً بأنى قد عشت ، ولم أكن أرغب فى أن أحيأ بما لم يكن أصيلاً فى الحياة ، لأن الحياة غالية ، كما أنى

لم أكن أقصد إلى الاعتكاف ما لم يكن هذا ضروريًا ، إنما أردت أن أعيش في عمق وأن أمتص منح الحياة ، وأن أحيي في قوة حياة إسبرطية تبعد عني ما ليس من الحياة . وأن أدفع الحياة إلى مازق ، وأن أصل منها إلى أن أدون ما فيها . فإذا كانت خسيصة فإني سوف أعلن خستها للعالم . وإذا كانت سامية فإني أريد أن أعرف هذا السمو وأجره وأقدم عنه حساباً » .

هذا كلام جد وعمل جد . فإننا لم نقف قط هذا الموقف من الحياة . وإنما الأنبياء وحدهم الذين وقفوه وجربوه . إذ لست تجد نبيًا إلا وله فترة من الاعتزال والاعتكاف يترك فيها المجتمع ، ويبحث فيها عن مراسيه في الدنيا . وهو في هذا الاعتكاف « عاص مدني » يحاول أن يتخلص من القيم والأوزان الاجتماعية كي يصل إلى ما يقابلها من القيم والأوزان البشرية التي تعلو على العادات والعرف . والأديب المخلص في حاجة إلى مثل هذا الاعتزال والاعتكاف من وقت لآخر .

ولكن ثورو لم يكن يريد من فراره إلى الغابة أن يعتكف للتأمل فقط ، وإنما كان يريد أن يجد ويجرب طريقة أخرى للعيش لعلها تكون أفضل من عيش المتمدنين .

لقد نشأ ثورو في مدينة صغيرة ولكنها مع صغرها كانت تحوى جميع التأنقات التي تمتاز بها المدن ، هي مدينة كونكورد في الولايات المتحدة . وعاش ثورو فيها واحترف التعليم ، ولكنه تركه للأدب . ولم يوفق كثيراً ، بل الحق أن شهرته في أيامنا تزيد عشرات المرات على شهرته حين كان حياً يدعو دعوته الحارة إلى الطبيعة .

وإحساس ثورو للطبيعة عميق ، يدهشنا أحياناً بعمقه . انظر إليه حين يقول :

« إن الطبقة العليا من التربة التي تحتوى جذور الأعشاب تحوى من الأدوات الميكانيكية ما هو أدق من أدوات الساعة . ومع ذلك نحن ندوسها بأقدامنا . وهذه الحركة التي تجرى في التربة في الظلام ، وهذه الكيمياء التي تتخلل ألياف العشب قبل أن تظهر ورقة واحدة منه فوق الشتات البالي لجديرتان ، لو أننا فهمناهما ، بأعظم كشف في الطبيعة » .

ولم يكن ثور و يدعونا إلى التخصص في دراسة الطبيعة وإنما كان يطالبنا بأن نعيش في الطبيعة . وهو يوضح لنا أن ارتباطنا بالمجتمع أو الحرفة أو السياسة أو الحكومة أو غير ذلك من المؤسسات الاجتماعية إنما هو شيء ثانوى إلى جانب ارتباطنا بالطبيعة ، بالأرض والجبل والنهر والشجر والحيوان والطائر . فيجب أن نعيش مع هذه الأشياء أو فيها . ثم يجب على الإنسان أن يكون قادراً على أن يعيش منفرداً متوحداً يأنس إلى الطبيعة دون الحاجة إلى مجتمع ، كما يجب أن ينشد سعادته واختبارته من الطبيعة وليس من النجاح المالى أو الاجتماعى . وهو هنا لا ينكر قيمة الصداقة بل يكبر من شأنها ، ولكنها صداقة الزمالة في الطبيعة .

إن الإنسان الاجتماعى كائن صغير إزاء الإنسان الطبيعى . . الأول يعيش في المدينة وهو محدود الاختبارات والآفاق ، له هموم صغيرة تستوعب نهاره بل بعض ليله . وهو يعمل جاداً متعباً كى يجمع ثروة أو يحقق غاية اجتماعية طول عمره . ولكن الإنسان الطبيعى لا يحتاج إلى أن يكد ويتعب إلا للحصول على طعامه وكسائه . أما سائر وقته فينقضى في الالتصاق بالطبيعة . وهنا يصدمنا ثور و بقوله : لماذا يفرض علينا العمل ستة أيام في الأسبوع ثم يوماً من الراحة ؟ أليس العكس هو الأولى ؟ . . .

وهو يعنى أننا إذا عمدنا إلى ترك التكاليف الاجتماعية الباهظة

وارتضينا بساطة العرش بين أحضان الطبيعة فإن يوماً واحداً من العمل في الأسبوع يكفل لنا جميع حاجتنا . أما الأيام الباقية فهي للاستمتاعات والاختبارات .

ترك ثورو مدينة كونكورد إلى بقعة نائية في عام ١٨٤٣ . وكانت سنة وقتئذ لا تزيد على ست وعشرين سنة ، وهناك بنى بنفسه كوخاً من الخشب . وكان قريباً منه غابة يحصل منها على خشب الوقود . وكذلك بالقرب منه بركة تحوى القليل من السمك . وكان عندما يحتاج إلى أكثر مما يحصل عليه من البركة والغابة ، يؤجر نفسه للمزارعين المجاورين ويشترى بعض حاجاته بما يكسبه من أجر عمله . وقد كلفه بناء الكوخ ثمانية وعشرين دولاراً . وكان طوله ١٥ قدماً وعرضه ١٠ أقدام ، وهو يصفه بأنه يحوى من المرافق أكثر مما يحوى المسكن العادى في المدينة « ولم يكن له قفل على الباب أو ستار على النافذة ، وكان جزءاً من الطبيعة بقدر ما كان جزءاً من العمل البشرى » .

وهو حين يصف الطبيعة تحس كأنه قد انتشى بها كما ينتشى أحدنا بالخمير ، بل كأنه قد تزوجها ويحس فيها طرباً جنسياً قد بلغ الذروة . وهو يستخرج منها لهذا السبب الإحساسات والمعاني التى التى تخطر على بال من يعيشون في المدن حيث معظم اللذات مصنوع . انظر إلى قوله : « الإنسان الحيوان ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخر » .

« ليست الأرض التى أدوسها هامة مية . إذ هى جسم وروح . . . وليس لأمعائها الدقيقة نهاية . هنا كمان من الأنوار ، من الأكباد ، من الأعماء . أليس لك أمعاء ؟ إن للطبيعة أمعاء ، ثم هى أم البشرية . وعندما نضع البذور فيها تتجرد ثم تنمو » .

هذا هو الانتشاء بالطبيعة . وهو مثل كل انتشاء . يحوى شيئاً من

الهديان ولكنه هديان ملهم يدل على حقائق . وهو يقول أيضاً :
 « يجب أن تصعد فوق الجبل كي تعرف العلاقة بينك وبين المادة .
 أى بين جسمك وبين المادة ، لأن جسمك يجد بيته هناك » .
 « انظر إلى أصابعي وكيف أتناول وأعبث بها . أجل ، إنها ، هذه
 الأصابع ، قد تكون جزءاً من قمة هذا الجبل الذي أصعد إلى قمته كي
 أرى أبناء عمومتي . إنه يحوى أصابع الأيدي والأقدام كما يحوى الأمعاء .
 ومن هنا اهتمامي » .

ثم يقول : « عش في كل فصل من فصول السنة . تنفس الهواء
 واشرب الشراب . وتذوق الفاكهة واستسلم لها جميعاً . ولتدفعك جميع
 الرياح . واقتح مسامك جميعاً واستحم في مد الطبيعة وفي أنهارها ومحيطاتها
 في جميع الفصول .

« وإذا كنت تحس أنك تستقبل النهار والليل في طرب وفرح ، وإذا
 كانت الحياة تنقل إليك أنفاس الزهر والعشب في أرج جميل ، فأنت
 موفق . والطبيعة تهنتك . ولك الحق عندئذ في أن تحس أنه قد بورك
 عليك » .

* * *

لم يقض هنري ثورو عمره كله في كوخه . إذ هو رجع بعد سنة
 وشهور إلى المدينة ، وهو بهذا يحملنا على أن نفهم أن عودة البشر إلى
 حياة الفطرة في الغابة لم تعد ممكنة . وإنما قصارى ما نفهمه من تجربته أنه
 أوماً إيماءة لنا بأن التكاليف الاجتماعية الباهظة نستطيع أن نستغني
 عنها . وأن في « الفقر الإداري » كما سماه قيمة يجب ألا نستهن بها . فإن
 حياة المدينة وما فيها من هرولة وعصبية وهموم ، كل هذا يمكن النجاة
 منه بأن نجعل شعارنا : كيف نستغني ؟ بدلا من كيف نقنتي ؟

والولايات المتحدة بعد مائة سنة من تجربة ثورو أحوج إلى عبرته مما كانت في عام ١٨٥١ . لأن المباراة التي يعيش فيها الأمريكيون هذه الأيام هي أقتل للنفس وأبعث للقلق والخوف مما كانت في أيامه . والأمريكي الذي ينبعث في عام ١٩٥٠ إلى مثل تجربة ثورو هو رجل سعيد بالمقارنة إلى المهرولين العصبيين الذين يملأون أسرة المستشفيات للأمراض العقلية .

وإنه لمن الحسن أن ينهنا كاتب ، بإسرافه في الحب للطبيعة ، إلى أنه ، إلى جنب الشارع والنادى وسهرات الكثول وعد النقود وشراء الأرض واقتناء الضياع أو الأسهم في الشركات ، إلى جنب هذا توجد أرض وسما وأشجار وزهور وأنهار وجبال ، وأن القمر يضيء في الليل ويكسو الحقول بأشعته ، وأن النجوم تناديننا في الظلام كي نتأملها ونتحدث إليها .

وأنا من وقت لآخر يجب أن نختلي ونستوحد ، كي نعيد النظر في حياتنا ونسأل هل نحن نعيش مسوقين بضغط العادات الاجتماعية التي لم نفكر من قبل في قيمتها ؟ وألا يجدر بنا أن نغير هذه العادات أو ننقحها بإلهام الطبيعة التي تردنا إلى الأصول والحدور ؟

obeyikendi.com

تولستوى
فيلسوف الشعب



ولد تولستوى فى عام ١٨٢٨ ومات فى عام ١٩١٠ .

ومن هذين التاريخين نرى أنه عاصر القرن التاسع عشر كله تقريباً ولكنه لم يكمل يعيش فى القرن العشرين ، فقد مات قبل الحرب الكبرى الأولى بأربع سنوات . وما كان أحوالنا إلى أن نسمع . صوته عن هذه المجزرة البشرية العظمى .

ولكنه فى القرن التاسع عشر رأى كثيراً واختبر كثيراً . فقد اشترك فى حرب القرم فى عام ١٨٥٤ . ورأى بعد ذلك حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا . ورأى أحد القياصرة يقتل . ورأى تحرير العبيد فى عام ١٨٦١ . واصطدم بالكنيسة وطرد منها . واصطدم بعائلته حين أراد تسليم أرضه المورثة للفلاحين . وانهمزم ، وصمت .

وكان طيلة حياته في النصف الثاني للقرن التاسع عشر ضمير أوروبا ، يرتأى الرأي ويعظ الموعظة ، ولكنه قلما كان يزيد على ذلك . وهنا أكبر إهماله أو خطأه .

كان ضمير أوروبا ، كما كان غاندى - منذ ١٩٢٠ إلى ١٩٤٨ - ضمير الهند والعالم . كلاهما ، تولستوى وغاندى ، صورتان لشخص واحد ، هما صورة الأستاذ وتلميذه ، ولكن هذا التلميذ ، غاندى ، حاول أن يجعل آراء تولستوى ومواعظه أعمالاً منفذة .

في هذه الحياة الطويلة التي عاشها تولستوى رأى أهوالاً من الشقاء البشرى كان أولها حرب القرم . فإنه يذكر أنه عقب هذه الحرب لم يطق إلا أن يأخذ قلمه ويكتب . وأن ينذر قلمه نحو هذا الشقاء البشرى . أى الحرب .

ولكن حرب القرم يمكن ، بالمقارنة إلى حروبنا الحديدية التي تخم على عالمنا العصرى ، بالذرة المنشقة والذرة الملتحمة ، يمكن أن تعد مباراة في كرة القدم .

ولو أن تولستوى كان حيناً في أيامنا ، وكان يسمع أو يقرأ ما يقال عن الحرب المنتظرة ، لطالب بإرسال جميع المسئولين إلى المارستان .

لإنها الحرب التي جعلته يقول في عام ١٨٥٤ : لم أتمالك أن أتناول القلم وأكتب . وكل رجل شريف له قلم يجب أن يقول مثل هذا القول هذه الأيام .

والحرب بؤرة لمشكلات عديدة . اضطر تولستوى ، كما يضطر غيره في مثل هذه الظروف ، إلى أن يشتبك فيها .

فاشتبك في معنى الدين ! ودلالة الفن ، وهدف الثقافة ، وأسلوب العيش ، وعادات الحب والزواج . وكتب القصة الفنية ، والرسالة المناقشة .

وحاول أن يحس وفق ما يقول ويؤمن . ونجح قليلا وفشل كثيراً .

نجح من حيث إنه عمم الإيمان بأن المجتمع يعاني من الأسواء ويحمل من الأضرار ما يجب أن يبعثنا على إصلاحه . فكانت بذلك مؤلفاته إيماء للشورة .

وفشل من حيث إنه كان يعتقد الاعتقاد الديني بأن إصلاح الفرد يؤدي إلى إصلاح المجتمع . . و لم يفقه قط إلى أن الفرد مسير بعادات المجتمع وأساليب عيشه . ونظم أخلاقه وعاداته . وأنه لن يتغير إلا إذا غيره المجتمع أو هياً له أسباب التغيير .
كان تولستوى مثاليًا ولم يكن مادياً .

° ° °

نجد في حياة تولستوى ظروفاً أو حوادث رسمت له خطوط حياته . فإن حرب التوم بفظائعها جعلته كاتباً يكتب عن قهر وإلزام لأنه لا يطيق الصمت . وهذه الحال أعظم ما يهيج التفوق والنبوغ في الكاتب ثم رأى هول النظام الإقطاعي في روسيا ، والرق الزراعي الذي كان يقضى بخضوع الفلاحين لصاحب الأرض ، لا يتركها إلى غيرها . إذ هم عبيد تملكهم الأرض ولا يملكونها . وقد ألغى الرق في عام ١٨٦١ ، ولكن تولستوى حرر عبيده تطوعاً قبل أن يسن هذا القانون .

ورأى تولستوى في حياته الأدبية صراعاً بين المستغربين والمستشرقين . فإن دعاة الإصلاح انقسموا فريقين : أحدهما يقول بالتزام روسيا لمبادئها الشرقية . والآخر يقول بأخذها بالأساليب الغربية .

وهذا التردد أوقع بالشعب في بلباة كسب منها الرجعيون . أى القيصريون والكنسيون . أليست القيصرية والكنيسة مؤسستين شرقيتين وطنيتين يجب المحافظة عليهما ؟ ولذلك كان القول بتحرير العبيد من الرق

الزراعى . وتعليم المرأة فى الجامعات . والتفكير الاجتماعى فى معانى الدين . بل البرلمان نفسه ، كل هذا كان من بدع المستغربين الذين يعدون خوذة للمبادئ الشرقية الروسية .

وكان فى الجانب الآخر دعاة الحضارة الغربية العصرية الذين أخذوا بالمدىب الماركسى فى الاشتراكية . والذين كانوا يطالبون بإلغاء القيصرية واحتضان الثقافة العلمية الأوروبية .

وانتقلت هذه المعركة إلى الأدب الروسى واحتلت مركز المناقشة فيه . فى ناحية نجد دستوفسكى يعنى على أوروبا ماديتها ويدعو روسيا لاستيفاء شرفيتها .

ومن ناحية نجد تورجنيف يدعو إلى الغرب . ومن هنا نشأت كلمة « العدمية : النيهلزم » التى سكتها تورجنيف كى يبين البلبلة أو اليأس الذى يقع فيه شبان روسيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين كان يحملهم قنوطهم على طلب العدم ، لأن الوجود لا يطاق .

الوجود لا يطاق إزاء ناس أشرار يطالبون بقاء القيصرية والكنيسة المستبدين ، وبقاء الرق الزراعى . وبقاء المرأة للبيت ، وبقاء الاستسلام والخضوع والرضى بالفقر .

لكل كاتب أب روحى ينتمى إليه ، أو هو يعتقد أنه ينتمى إليه : وفى هذا الانتاء أنسة تتولد منها شجاعة وإصرار ، وإحساس بالسلامة بالبعد عن الأخطار . ولا عبرة بأن يكون الأديب المنتمى مخطئاً ، وإنما العبرة بالإيمان .

وكان الأب الروحى لتولستوى ، چان چاك روسو .

كما كان الأب الروحي بعد ذلك لغاندى : تولستوى نفسه .
وقد صرح تولستوى بأن في شبابه كان يعبد روسو . وأنه كان يحمل
ميدالية عليها صورة هذا الأديب الفرنسى العظيم . ولقد قال فى أحد
مؤلفاته : « إني أحس . وأنا أقرأ لبعض الصفحات من روسو : كأنى
أنا قد كتبتها » .

ونحن نجد بين الاثنين قاسماً مشتركاً . فإن كلا منهما وجد فى الرجوع
إلى بساطة الحياة حلالاً للعمد الاجتماعية التى أوجدتها الحضارة العصرية :
والتي جعلت حياتنا شاقة بالطموح المسرف . والمباراة التامة ، واتخاذ
القصد المخطئ فى الجهد لجمع المال . والعيش فى البذخ .

لقد دعا روسو إلى العودة إلى الطبيعة وإلى المعيشة الساذجة . وقد
عاش روسو فى هذه الطبيعة الساذجة حين أثر الريف على المدينة ،
والالتصاق بالأرض والإنتاج الزراعى على مركبات الحضارة العصرية
التي كثيراً ما تستحيل إلى عقد .

ونحن نجد فى اعترافات روسو . ثم اعترافات تولستوى : أمكنة
عديدة للمشابهة . ولكن يجب أن نسأل قبل أن نلتمت إلى هذه
الاعترافات .

لماذا كتبها روسو وتولستوى؟ بل لماذا كتب غاندى : تلميذ تولستوى :
اعترافاته أيضاً التى سماها « تجارب فى الحياة » ؟

السبب هو القلق . فإن هؤلاء الثلاثة الذين هدفوا إلى الطمأنينة
والسلام والسعادة فى كتابتهم . كانوا قلقين لهذا السبب نفسه . أى أن جهدهم
لتحقيق الطمأنينة والسلام والسعادة قد أحالهم إلى مفكرين مكافحين
مخاصمين للمجتمع الذى عاشوا فيه . وقد تألموا جميعهم . فإن روسو طورد
كما لو كان مجرمًا . بل إنه عاش بعض سنى حياته وهو محتبى أو هارب .

وتولستوى طورد من الكنيسة التي كان يرفع دينها إلى أعلى مرتبة . وأما غاندى فقد ضرب وحبس . ثم أخيراً قتل .

ولسان هؤلاء الثلاثة جميعاً يقول : كما كان يقول أرميا : « ربى ! لم جعلتنى مُشاقاً لأهلى ؟ » أى ربى . لم جعلتنى على شقاق مع مجتمعى ؟ ولكن أرميا كان يجهل أن كل من يطلب الإصلاح والتطور والارتقاء لن يمكنه أن يودى هذه الرسالة إلا بعد شقاق بينه وبين أهله . وهؤلاء الأهل ، أو هذه الشعوب والمجتمعات ، بعد أن تضرب النبي أو الفيلسوف والأديب ، وتحبسه ، وقد تقتله ، بعد ذلك تقيم له التمثال الذى يخلد صورته وتحتفل بذكراه وتدرس أقواله . وعظماء الأدباء فى أيامنا هم الأنبياء وهم الفلاسفة .

• • •

لما كان تولستوى فى شبابه وجد نفسه نبيلاً ممتازاً على الشعب بالثروة والمقام . وله عبيد زراعيون يجرى عليهم حكم الرق . فأعتق عبيده هؤلاء ولكنه بعد ذلك وجد أن المبارة التجارية الجديدة ، واستخدام رأس المال الوطنى والأجنبى ، وظهور طبقة جديدة من الأثرياء الذين يطلق عليهم اسم « بورجوازيين » ، وجد أن المناخ الإقتصادى الاجتماعى الجديد ، على ما يزينه من طلاء الحضارة والثقافة - هذا المناخ أسوأ من المناخ الزراعى القديم . ففكر الحضارة الغربية العصرية ودعا دعوة الحياة الساذجة الفطرية ، دعوى روسو قبل مائة سنة .

وهنا نحتاج إلى أن نتلبث قليلاً ونبحث الموقف السيكولوجى .

فإن جان جاك روسو حين نخر المظالم المملوكية والإقطاعية فى فرنسا ، وحين شاهد البذخ النجس فى الطبقات البشرية إلى جنب الفقر الساحق المهين فى عامة الشعب ، حين رأى ذلك قال إن الحضارة كلها نجاسة

يجب أن نتجنبها ونعيش في سذاجة . لا نشترى الذهب ولا نبني القصور
ولا نأكل على الموائد المظهمة ولا نقطنى الحرير .

وكذلك تولستوى حين رأى غزو المزارعات التجارية . وبالخشع ،
أى الاستكثار من الثراء بالمباراة المتأتملة وسحق الفقراء من العمال . ثم
ما ينبئ على ذلك من مدن يحيا فيها الأثرياء مع التعتل والدعارة إلى
جنب آلاف العمال الجائعين الذين يعيشون في البديرومات — حين رأى
ذلك قال أيضاً بأن حياة الريف خير من حياة المدن . وأن الصناعات
الصغيرة فى القرى خير من المصانع الكبيرة فى المدن .

وقد تعلم هو صناعة الأحذية كى يحس راحة الضمير . وكان يحرق
الأرض . وكان يقول إن المتمدنين الغربيين يلعبون الألعاب الرياضية
لأنهم لا يؤدون أعمالاً مجهدة . ولو أنهم كانوا يعيشون مثل الفلاحين
على الأرض لما احتاجوا إلى الرياضة البدنية .

ثم جاء غاندى فأحب تولستوى كما كان هذا يحب روسو . وأسس
مزرعة باسم « مزرعة تولستوى » حين كان فى أفريقيا الجنوبية يدرس
مشروعاته فى مقاومة الشر بالخير . وكان يعمل ويجرب فى أساليب الحياة
التي أصبحت مذهباً عاش به المنود . فلبسوا الخيش وأكلوا الخضراوات
وصاروا يغزلون وينسجون كى يستغنوا عن الأقمشة الإنجليزية الواردة
إليهم من إنجلترا .

• • •

أرجو ألا يفهم أحد أنى أمدح هؤلاء الثلاثة على الخطط الأساسية
التي زعموا أنها تصلح للحياة العالية . وإنما وجدت أنه يجب . كى نفهم
تولستوى . أن نذكر هذا الاتجاه الذى لم يخل منه عصر . ويكفى أن
نقرأ قصة « نشيد الإنشاد » فى التوراة كى نعرف أن هذا الاتجاه قديم .

إذ أن هذا السفر لا يعدوا أن يكون دعوة إلى الطبيعة والسداجة والقناعة ضد الحضارة .

وفي قلب كل منا شيء يهفو إلى هذه الحياة . ونحن نزداد تفكيراً فيها عندما نجد أن مركبات الحياة المتمدنة قد استحالت إلى عقد يعسر علينا حلها ، وأنا نقع في مضاعفات تقلقنا وتؤيسنا وتمرضنا .

التفكير في العودة إلى الطبيعة ، والتفكير في القناعة بحياة الريف ، والتفكير في لبس الخيش وطعام النبات - كل هذا هروب من عقد الحضارة العصرية ومضاعفاتها والعجز عن حلها .
أما متى وجد الحل فإن أحداً لا يفكر كما فكر هؤلاء الأبطال الثلاثة .

* * *

تمتاز القصة الروسية ، على وجه عام ، بالواقعية . وهذا هو الأثر الذي تخلفه قراءة قصة روسية عند القارئ العربي الذي يعرف الآداب الروسية .

وتولستوى واقعي يتعمق البواعث الخفية ويكشف عنها في صراحة كثيراً ما فزعت منها الطبقات الحاكمة في روسيا .

وهو في كل ما يكتب لا ينسى أن ينبه إلى أن الحضارة العصرية غير إنسانية . وأشخاص قصصه فضلاء مستقيمون إذا كانوا فلاحين ساذجين مثل « لفين » في قصة « أنزا كارزينا » . وهم أرذال منحرفون إذا كانوا متدينين مثل « فردهنسكى » في هذه القصة نفسها .

وهذا تحيز واضح له أصول في روسو معلمه الأول .

ثم هو ، مثل روسو قبله . ومثل غاندى بعده ، شعبي . أى مع عامة الشعب والفقراء والمسحوقين والمحرومين . ومن هنا دعوته إلى تبسيط اللغة

الروسية . بل إن كراهيته لشكسبير تعزى . إلى حد بعيد ، إلى أن هذا الشاعر الإنجليزي يتعالى على الشعب ويسميه غوغاء لا يفهمون . وإلى أن معظم أبطاله ملوك وأمراء . بل إنه يسرف هنا حتى يقول إنه يفضل أغاني الشعب الروسى العامية على أشعار جوتيه شاعر ألمانيا العظيم .

وأسلوبه لهذا السبب شعبي . هو حديث يكاد يكون عامياً ، لانجد فيه تلك الكلمة المضيفة أو العبارة المزوقة التى اعتدنا أن نجدها فى كتب الأدب الأخرى . ولكنه فى كل ما يكتب سيكلوجى عميق لا يعلو عليه هنا غير دستوفسكى الذى عرف سيكلوجية فرويد قبل فرويد .

• • •

وربما يكون من المنير هنا أن نقارن بين تولستوى ودستوفسكى . فإن كلاهما كاتب عظيم من كتاب القصة . بل لا نغالى إذا قلنا إنهما أعظم كاتبين للقصة فى العالم كله . ومع ذلك أنا أؤثر عليهما جوركى ، ولكن ليس ذلك لأنه يعلو عليهما فى فن القصة ، وإنما لأنى أجد فيه مزاجى ونزعتى واتجاهى فى الثورة التى لا يرضى عنها تولستوى أو دستوفسكى المسيحيان .

وهناك فرق أصيل بين دستوفسكى وبين تولستوى .

ذلك أن دستوفسكى يهدف إلى إيجاد أشخاص ، بل أبطال . لكل منهم شخصيته الفذة التى يختلف بها عن سائر المجتمع فهم فلاسفة أو مجرمون أو حتى مجانين . ولكنهم عباقة . ولكن عبقريتهم فى الإحساس أكثر مما هى فى العقل . هم أذكاء فى الإحساس . فإن « رسكولنيوف » بطل « الجريمة والعقاب » وهى القصة التى كنت أول من حاول ترجمتها فى عام ١٩١٢ ، هذا البطل يقتل امرأة عجوزاً عن تعقل منطقي . ولكنه يعترف بعد ذلك بالجريمة ، ويرضى بحكم الإعدام أو النفى المؤبد عن

إحساس إنسانى . ولهذا المؤلف أشخاص متدينون فى قصته العظيمة « الإخوة كرامازوف » تتأمل تدينهم العميق فتشك فى إيمانهم : هل هم مسيحيون أم إنسانيون ؟ وهل ينشرون النور أم الظلام ؟ نحن نقرأه ونحن نعانى لذة ألمية ، وكأننا فى قبضة محال سيكولوجى نستجيب لأسئلته بومضات الذهن وارتجاف القلب .

جميع أبطال دستوفسكى شواذ ، مرضى ، ولكنهم عبقريون أذكىاء . أما تولستوى فمن الشعب يكتب للشعب . رجاله عاديون . وهو يعبر عن أعمالهم وصفاتهم بلغة شعبية بعيدة عما يسميه الاحتيالات البلاغية . المثل الأعلى عند دستوفسكى هو الرجل الشاذ الذكى الذى يحس أكثر مما يتعقل .

والمثل الأعلى عند تولستوى هو الرجل العادى الذى لا يشذ عن المجتمع . ولكن هذا المجتمع يجب أن يكون ساذجاً يحيا فى البساطة والصلاح . هو الرجل الطيب فى معنى الطبيعة الشعبية . بل أكاد أقول العامية .

البطل عند دستوفسكى هو من ينفصل من المجتمع .
والبطل عند تولستوى هو من يندمج فى المجتمع .

وأحسن أشخاص القصص عند تولستوى هو « ليفين » صاحب الأرض فى قصة « أنيا كرنينا » وهو مزارع طيب يتسم بأفكار عرفية ، أى اجتماعية ، عن الحب والزواج والعائلة والصلاح . هو تولستوى نفسه وسائر المزارعين .

وأحسن الأشخاص عند دستوفسكى هو الطالب « رسكلنيكوف » القاتل الفاجر الذى يقتل العجوز كى يسرق أموالها ، لأن حياتها « لاتزيد فى القيمة على حياة برغوث » .

أليس هذا هو المنطق : منطق العقل وحده ؟
ولكن دستوفسكى يعود بعد ذلك فيشرح في أكثر من مائتى صفحة
أن هذا المنطق خطأ .

وأبطال دستوفسكى يختلفون في معانى الحب من أشخاص تولستوى .
البطل عند دستوفسكى يحب المرأة البغى . ويعبدها . لأنه يعبد
آلامها . وينغمس في دموعها . ويكرع تعاسمها . وكأنه يبكى في هذا
الحب تعاسة الناس وبغاء حياتهم وجوعهم . وهو يستنبط من هذا الحب
المعانى الإنسانية التى تجعلك تسمو على نفسك .

أما أبطال تولستوى فيحبون هذا الحب الأفلاطونى الذى يتوهم الناس
أنه الحب السطحى . مع أن أفلاطون قصد منه إلى الحب الشامل للإنسان
والحيوان والنبات ، والصدق والشرف ، والحقيقة والفن والطبيعة .
الحب عند تولستوى هو الحب للناس أولاً . ثم بعد ذلك لهذا الكون
بكل ما فيه من مخلوقات .

ولهذا السبب كان تولستوى يقيس كل شىء بقيمته للشعب . فالكتاب
أو الصورة أو اللحن إنما هى جميعها وسائل لزيادة الاتحاد ، بل الاندغام ،
بين أفراد الشعب . وعنده أننا كلما اندغمنا في الشعب كنا أسعد ، وكلما
انفصلنا كنا أتعس . ومن هنا كراهته لشكسيير الذى يكتب أحياناً في
وقاحة ، ويصف الشعب أنه غوغاء . وكذلك كراهته لخبوتيه ، حتى قال
إن الأغاني الشعبية الروسية تحوى من الفن أكثر مما تحويه أشعاره .
وكذلك احتقاره لما كان يسميه « الاحتمالات البلاغية » لأن فنون البلاغة
للخاصة وليست للشعب . ثم أخيراً نجده يحرث الأرض ويصنع الأحذية
بيديه .

إنه يريد أن يكون من الشعب ويؤدى الأعمال الشعبية .

وهو هنا بالطبع مسرف . ولكن لهذا الموقف وجهاً يستحق أن نبحثه من ناحية المزاج النفسى والإحساس العاطفى ، وليس من ناحية الارتقاء البشرى والتقدم العلمى . بل إن لهذا الموقف مغزى لا يستهان به حين نتأمل خطط غاندى الشعبىة فى الهند والنتيجة التى انتهت إليها .

* * *

تغمر إحساسات الحب حياة تولستوى .

الحب الأفلاطونى الذى يشمل الحياة والطبيعة : حب روسو .
وأكبر الظن أن روسو . هو الذى نبه ذهنه إلى الحب . أو هو الذى أیده وبعث فيه الاستطلاع والتعرف .

ولذلك لا نستغرب من تولستوى أن يلتفت إلى معانى الحب التى دعا إليها الإنجيل . ولكن التفاته هذا أدى به إلى الاصطدام بالكنيسة .
والواقع الذى يثبت تاريخ أوربا أنه كلما اقتربنا من الإنجيل ، وحاولنا أن نفهم تعاليمه منه مباشرة ، ونقرأه مثل أى كتاب آخر ، كلما فعلنا ذلك ، ابتعدنا عن الكنيسة . ونعنى بالكنيسة هنا كهنتها .

فإن لوثر ، المصلح البروتستانتى ، حين شرع يدرس الإنجيل مباشرة طردته الكنيسة الكاثوليكية . وكذلك فعلت مع رينان . وكذلك فعلت الكنيسة الأرثوذكسية مع تولستوى .

إن للكهنة تفسيرات « رسمية » للإنجيل . فمن تجراً من المسيحيين على أن يفهم كلمات الإنجيل ، خارج هذه التفسيرات الرسمية ، فإنه عندئذ يكون عرضة للوم والحرم . وليس هذا شأن الكنيسة أو الكنائس البروتستانتية ، التى تعلمت من طرد لوثر ألا تطرد أحداً يخالفها .

وكان طرد تولستوى أو إلقاء الحرم عليه ، قائماً على أنه نظر إلى المسيح النظرة الإنسانية ، ووجد فى الأخلاق التى دعا إليها ، وعمادها

الحب . أخلاقاً لا تحتاج إلى وحى إلهي . بل إنه يقول إنه هو نفسه ،
أى تولستوى : كان يمكنه أن يقول بما قال به المسيح في الأخلاق دون
أن يحتاج إلى وحى إلهي . لأن هذه الأخلاق هي أفضل ما نعرف وأليق
ما تكون للمجتمع البشري . هي أخلاق عليية .

وهو يقول في إحدى مذكراته حين كان يقاتل في حرب القرم
حوالى عام ١٨٥٥ : « ... خطرت بذهني فكرة ، هي تأسيس ديانة جديدة
تتفق والحال الحاضرة للنوع البشري . أعني الديانة المسيحية التي تتطور
من العقائد الجامدة ومن الغيبيات بحيث تصير ديانة عملية لا تهينا سعادة
المستقبل (بعد الموت) وإنما سعادة الحاضر على هذه الأرض » .

وهو يستخلص من موعظة الجبل في الإنجيل هذه الوصايا الخمس :

- ١ - لا تغضب .
- ٢ - لا تزن .
- ٣ - لا تقسم .
- ٤ - لا تقاوم الشر .
- ٥ - لا تكن عدواً لأحد .

هذا هو كل ما يؤمن به من الإنجيل . وما عدا ذلك فزيادات يمكن
الاستغناء عنها ، ولكن تولستوى مع ذلك لم يجابه كل الحقائق ، ولو كان
قد فعل لاستقر على العلم وحده .

• • •

حقيقة الموت من أعظم الحقائق التي تواجهنا عندما نفكر في الحياة
البشرية .

لماذا نموت ؟ ولماذا نخاف الموت ؟

وقد فكر تولستوى كثيراً في هذا الموضوع . وله قصة تسمى

« ثلاث ثوبات » توضح لنا رأيه في الموت . وقد كتبها في عام ١٨٥٨ .

والموتات الثلاث هي موت سيدة ثرية متمدنة ، وموت فلاح فقير ساذج ، ثم موت شجرة . وهو يصف تدرج الموت : منذ بدايته حتى نهايته ، في هذه الأحياء الثلاثة . وله نظرية في ذلك ، هي أننا نتألم من الموت ونخشاه لأننا نحيا في الحضارة على وعى بأن كلا منا فرد منفصل . ويزداد هذا الإحساس إذا كنا متمدينين متعلمين . ولذلك نخشى في السيدة الموت .

أما الفلاح ، فلأنه ساذج ، يحيا مع الطبيعة ولا يحس فرديته إلا بمقدار صغير ، أى أنه ليس على وعى خاص بحياته . هذا الفلاح يتحمل الموت ويستقبله بأقل الألم وأقل الخوف .

أما الشجرة التي تخلو من الوعي ، وليس لها أى إحساس بفرديتها إذ هي جزء متم لا ينفصل من الطبيعة ، هذه الشجرة لا تحس بتألمها بالموت . ونحن حين نقطع غصونها ونكسر ساقها لا نجد فيها ما يدل على ألم أو خوف .

والمغزى الذي يستخرجه تولستوى من هذه المقارنة بين الموتات الثلاث ، أنه كلما ازدادنا ثقافة وتمدنا وبهرفة ، ازدادنا أيضاً وعياً وانفصالاً من المجموعة البشرية . ونحن نتألم لهذا الوعي والانفصال وقت الموت . ولكن لو كان وعينا وانفصالنا ضعيفين أو معدومين لكنا مثل الفلاح ، بل مثل الشجرة . لأن موتنا جزئى ، إذ نحن أحياء في المجتمع أو الطبيعة لأننا لم ننفصل منهما . إذ يكون موتنا بمثابة من تكسر أصبعه أو يده فقط .

إن تولستوى طبيعة أخرى لرسو .

إنه يمدح الحياة البدائية ، بل يمدح الطبيعة غير الواعية . ويجد فيها

الفلاح آلام الموت والشفاء من الخوف من العدم .
وهو بالطبع لا يؤمن بالغيبيات التي تلي الموت . ولا يشتهي ، ولا
ينتظر أطباق الحلوى بعد الموت . هذه الأطباق التي يعتقد بعضها أنها
تخفف من ألم الموت وتزيد الخوف منه . مع أن الواقع يثبت غير ذلك .

• • •

إن تولستوى يستحق النقد هنا .
ذلك أنه نظر إلى الموت من حيث إنه مواجهة العدم للإنسان .
وإنه نهائي ليست بعده حياة أخرى . .
ولكن عبرة الموت يجب أن تنعكس على الحياة .

إذا ما دامت الحياة تنتهى بالموت انتهاء تاماً ، فيجب لذلك أن نحيا
حياتنا بأقصى وأعرق ما نستطيع ، وأن نجعل من هذه الدنيا نعيماً لأبناء
البشر . نحن في سعادة وسلام وعلم وثقافة واستمتاع ، ونعم الخير
والعدل . ونتحمل نحن وحدنا المسؤولية في كل ذلك بدلا من إلقاء
المسؤولية على قوات غيبية .

ولكن تولستوى لم يكن يرتفع إلى هذا التفكير لأنه لم يكن ثورياً
والثورة وحدها ، أى السعى لإيجاد ثورة تغير المجتمع ، هي التي نقلت
الاهتمام النفسى والذهنى من التفكير فى الدين إلى التفكير فى الدنيا .

وكراهية تولستوى للثورة يعود إلى إيمانه المطلق بأن الشر يجب
ألا يقاوم ، وأن الموقف السلمى من المظالم والشرور جميعها هو الموقف
الذى اتخذه بعد ذلك غاندى .

وقد اتخذه غاندى نقلا عن تولستوى .
لم يكن تولستوى يؤمن بالثورة . إذ كان يقنع بالإيمان بالمسيحية ،
بالإنحاء المسيحى .

ولكننا مع ذلك نظلّمه إذا قلنا إنه لم يعمل لتعجيل الثورة. ذلك أنه عمم السخط بين طبقات المثقفين في روسيا لأنه أبرز مظالم المجتمع والحكومة والكنيسة. وهذا السخط كان الاختيار الذي سبق الانفجار بالثورة. لم يكن اشتراكياً ، ولم يكن له برنامج ، ولم يكن له كفاح عملي مذهبي سوى تسليم الأرض للفلاحين . وقد حاول هو نفسه أن يفعل ذلك واصطدم بعائلته التي منعتة من إنفاذ نيته . لم يكن تأثيره إرشادياً للثورة ، ولكنه كان إيحائياً .

* * *

ولا نستطيع أن نقول إن غاندى قد أرشد الثورة في الهند بالتعاليم التي أخذها عن تولستوى . وإنما قصارى ما نقول عنه إنه أوحى بها ولونها بلون الوداعة التي انتهت بالمقاطعة ، مقاطعة الإنجليز المستعمرين . وكلاهما ، أى تولستوى وغاندى ، يجهل الأساس الوحيد الذي تنبى عليه المجتمعات وتتغير بتغيره وتتطور بتطوره .

هذا الأساس هو الأساس الاقتصادي .
كان كلاهما « مثاليًا » وليس « ماديًا » .
كان كلاهما يطلب الأخلاق ثم الإصلاح .
الأخلاق عند كل من تولستوى وغاندى تؤدي إلى الإصلاح .
وهذا هو الخطأ الفادح .

لأن الأخلاق ليست شيئاً سوى الثمرة أو الثمرات ، التي يثمرها النظام الاقتصادي . فإذا كان هذا النظام حسناً عادلاً فإن الأخلاق تكون حسنة عادلة .

كان كلاهما يطلب إصلاح الفرد . ثم يؤدي ذلك في منطقه إلى إصلاح المجتمع .

ولكن العكس هو الذى نؤمن نحن به الآن ، فإننا نقول إننا نحتاج إلى مجتمع عادل لكي يتعلم أفرادُه بنظامه ، محض نظامه ، ويمارسون العدل فى علاقاتهم الواحد مع الآخر .

موقف غاندى وتولستوى هو الموقف المسيحى . وهو أن على الفرد واجبات إذا ما صار المجتمع صالحاً .

ولكن أهل نيجت المسيحية أتى لذلك ؟

إنها لم تنجح . بل انتهت بعد ألفى سنة من تعاليمها باختراع القنابل الذرية الهيدروجينية ، أقوى أسلحة الشر فى تاريخ العالم .

إن أسوأ ما فى تولستوى وغاندى معاً إنهما لم يفهما ، ولم يدرسا التفسير الاقتصادى للتاريخ .

ولكن هل معنى هذا أنهما لم يخرجا عصرهما ؟

لا . لأن الواقع أنهما . كما قلنا ، أوجدا سخطاً أدى إلى اختار . ثم انتهى الاختار بالانفجار . فكانت الثورة الاشتراكية فى روسيا . ثم ثورة الاستقلال فى الهند .

السخط جعل الناس يفكرون ويغضبون . وانتهى التفكير والغضب إلى الثورة التى شبت بعد وفاة تولستوى بسبع سنوات فى عام ١٩١٧ .

ولكن هذا السخط الذى جعل الناس يفكرون ويبتكرون جعل تولستوى نفسه يبتس ويشقى . إذ كان هو يسخط ويتآكل ببخاره لأنه لم يكن له برنامج اجتماعى للثورة .

ولذلك أيضاً وجدناه بعد حياة بلغت ٨٢ سنة ينهض من فراشه فى الفجر ويترك بيته وأولاده ويفر إلى حيث لا يعرف . إذ لم يكن له وجهة ولم يكن له قصد .

كان يريد الفرار فقط .

فر من الحياة البائسة إلى الموت . ومات .

وبموته أثبت أن ما كان ينشده من الارتباط العضوي بالمجتمع ، على الطريقة التي رسمها ، لم يعد ممكناً . لأنه لم يعد من الممكن أن نزل عن وعينا بالنزول عن ذكائنا وثقافتنا ، ونحيا حياة الفلاح أو حياة الشجرة . ولكن هناك ارتباطاً آخر يحسه الرجل المثقف الواعي في أيامنا ، هو هذه الاشتراكية التي ننشدها . فنحن في حياتنا ، بل كذلك في موتنا . أجزاء متممة للمجتمع ، نرقى برقيه . . . فلا نشق من الحياة . ولا نخاف من الموت .

ومع كل ما ذكرت عن تولستوى وروسو وغاندى . ومع كل ما نجد في حياتهم وتعاليمهم من أخطاء . فإننا نهفو إليهم كما نهفو إلى النسيم المنعش ، لما نجد فيهم من إخلاص وسذاجة وحب تفسدها علينا الحضارة . العصرية .



فرويد

وتشريح النفس البشرية

في النصف الأول من القرن العشرين خطأ كثير من العلوم خطوات تقرب الوثبات . فإن انتهاء الطبيعيات بالطاقة الذرية يعد وثبة وإن تكن وثبة جامحة في الظلام . إذ ما كان أحد ينتظر أن يصل عالمنا إلى هذا الكشف العظيم قبل مئات السنين ، ولذلك فوجئنا بالقنبلة الذرية فكانت شر البدايات التي عممت الذعر .

والتقدم في الطبيعة والكيمياء والبيولوجية كان منتظراً منذ أكثر من مائة سنة ، لأن لهذه العلوم تاريخاً يعود في بعضها إلى أكثر من مائتي سنة . ولكن السيكلوجية كانت إلى نهاية القرن الماضي علماً مغلقاً أو كالمغلق . ولعل أكبر ما عاق تقدمه ، بل ميلاده ، هو أنه نشأ نشأة زائفة في حضن الفلسفة التي كانت تنأى عن التجربة وتقتصر على التفكير المجرد .

ثم جاء فرويد فكشف عن النفس قناعاتها بمفتاح جديد هو «العقل الكامن» أو الكامنة .

وفكرة الكامنة هي إحدى الأفكار المحورية أو البذرية . فكرة خصبة ولدت ، وتوالد أولادها ، حتى ظهر من الأولاد ما عاق الأم ، ولكنه في عقوقه قد أثمر ونفع .

وفي العقد الأول من هذا القرن كان صوت فرويد هامساً خافتاً ، فما هو أن بلغنا العقد الثاني والثالث حتى صخب . وعلا بل طغى وأحس العالم أنها هنا قوة فكرية توجه الثقافة توجيهاً جديداً لم نكن نعرفه من قبل .

وإذا كان النصف الثاني من القرن التاسع قد حفل بالصراع الفكري بشأن داروين والتطور ، فإن النصف الأول من القرن العشرين قد حفل بصراع آخر بشأن فرويد والعقل الكامن . وبين الفكرتين شبه كبير ذلك أن نظرية داروين قد أثبتت لنا أن الجسم البشري هو ثمرة التطور ، وأنه لذلك يخفى كثيراً من الأعضاء الأثرية القديمة التي ورثناها من الأرومة الحيوانية التي نشأنا منها . وكذلك الشأن في نظرية فرويد . فإنه أثبت أن النفس البشرية قد ورثت وظائف وحشية قديمة ، وأنا نألم ونبتئس لأننا في صراع لا ينقطع بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة وبين قيود الحضارة التي تمنعنا من ممارستها .

وقد قضيت كثيراً من سني عمري في ضوضاء هذه النظرية وتأثرت بها كما يبدو من مؤلفاتي فلإني أعد منها خمسة أو ستة ألقمتها في هذا الموضوع بالذات ، أو تناولت الموضوعات الاجتماعية والثقافية بالشرح والتعليل السيكلوجيين . فإن كتيبي «فن الحياة» و«كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين» و«التثقيف الذاتي» و«الشخصية الناجعة» هي معالجات

سيكولوجية هذه الموضوعات ، وهذا فضلا عن كتابي « أسرار النفس » و « عقلي وعقلك » و « محاولات سيكولوجية » وهي في صميم السيكولوجية الشعبية .

وقد انتفعت كثيراً بهذا الاتجاه السيكلوجي في ثقافتى ، ولكنى لم أنتفع به كثيراً في حياتى اليومية ، لأنى على الرغم من السيكلوجية مازلت أعيش وفق ما نشأت وتدربت عليه أيام طفولتى إلا القليل ، بل القليل جداً الذى استطعت أن أنفضه عن نفسى من أخلاق وعادات ذهنية طفلية . وأنا هنا شاهد على صحة التعاليم الفرويدية وهو أن للسنين الأولى من العمر أكبر الأثر في التوجيه الأخلاقى .

ولكن جمعى بين فكرة التطور وفكرة العقل الباطن قد أخصب ذهنى وحركنى إلى تفكير أخلاقى جديد . فمن ذلك مثلاً أنى تجنبت الخبط الذى يربم به الكتاب في موضوعات مختلفة مثل السعادة . فإنى وثبت فوراً وبداهة إلى أن السعادة هى الوجدان ، أى ما يسميه عامة كتابنا « الوعى » ، وأنه بمقدار ما هندنا من وجدان ودراية نكون سعداء . وبمقدار ما يستولى علينا العقل الكامن أو الكامنة نكون تعساء . وهكذا الشأن في موضوعات أخرى .

وقولى إن فرويد قد هدانى ووجهنى ليس معناه أنى قد سلمت له بلا قيد أو شرط . ولكنه كان البذرة التى أخصبت فى نفسى . وأخصبت أحياناً ضد ما أرادته فرويد . وحسبى من ذلك أن أقول إنى أوشك أن أكون « بافلوفيا » هذه الأيام من حيث الإيمان بأن الأفكار البشرية جميعها إنما هى رجوع انعكاسية مكيفة ، أى معدولة ، عن الرجوع الأصيل . ولكنى ما زلت فى شك .

وقد كانت رحلتى فى السيكلوجية وازية متعثرة ، بدأت بفرويد ثم

يونج ثم أدلر ، ثم أولئك الأمريكيين التجريبيين ، ثم كرتشمير ثم بافاوف .
ولكن فرويد هو الذى فتح لى الكوة وبسط لى الميدان وأكسبنى
الحافز .

وفرويد هو بعد ذلك المفكر الأساسى بين السيكلوجيين . فإنه حط
على الحقيقة الأولى وهى الكظم العام للشهوة الجنسية وما يؤدى إليه
من اضطرابات شخصية . وهو حين يجعل هذه الشهوة حافزاً أولياً
للنشاط البشرى لا يعدو الحقيقة فى عالم الحيوان كله . ثم هو حين يعلق
مستقبلنا الأخلاقى والمزاجى والعاطفى على السنين الأولى من الطفولة
إنما يوضح حقيقة بل أكبر الحقائق فى مبادئ التربية وقيمة العائلة
الحاسمة فى التوجيه الاجتماعى الصحيح .

وأخيراً هو الذى جعلنا نعرف أننا نسير فى هذا العالم بقوة العواطف
المستترة فى الكامنة أكثر مما نسير بقوة الوجدان اليقظ الذى ندرى به
ما نفعل . فنحن نحب ونكره ، ونخاف ونشجع ، ونشمئز ونقبل .
بعواطف اندست فى كامننا منذ الطفولة ونكاد لا ندرى بها إلا بعد
التخليل الشاق .

فقد يجب أهدنا فتاة ويتزوجها على اعتقاد أنه يحبها لأنها جميلة
أو وديعة ، أو أن عينها ساحرتان أو غير ذلك . وهو إنما أحبها لسبب طفلى
هو أنها تشبه أمه أيام كانت تحمله على صدرها للرضاع . أو هو قد يكون
مدالاً نشأ على إحساس الحاجة إلى الأم ، وقد وجد فى هذه الفتاة رعاية
الأم لأنها أكبر سنّاً منه . فهو يستجملها لهذا السبب . أو هو وجد فيها
كبرياء وتسلطاً وهو « مازوكى » يجب أن يتألم ، فهو يحبها لأنه يحس فى
جانبا أنه ذليل (وأيضاً محمى) . أو قد يكون عكس ذلك . أى أنه
سادى يجب إيقاع الأذى والقسوة بغيره . فهو يختارها صامته منكسرة
أو ضئيلة الجسم ، لأن انكسارها وضآلتها يشبعانه ويزيدان إحساسه

بالقوة . أو قد يكون شاذًا ، فهو يحبها لأنها تشبه الصبيان والشبان .

وقد يكره أحدنا بعض الأطعمة ، بل لعله يشمئز من رؤيتها بحيث يكاد يعتقد أن هذا الاشمئزاز « طبيعي » . وهو إنما يردد في نفسه ظرفاً معيناً سابقاً أو أسلوباً للعيش قد تعلمه في طفولته .

وقد نجد شخصاً له « إرادة حديدية » لا يتراجع ولا ينحرف عن هدفه مهما اعترضه من صعوبات وكأنه معجزة عجيبة في التزامه هذا الهدف وفي توفيقه بتحقيقه . وحقيقة أمره أنه لظروف سابقة معينة قد تخيل هذا الهدف وتجسم هذا الخيال الذي ربما يكون قد نشأ أيام الطفولة . ثم صار هذا الخيال يوجهه ، من حيث لا يدري ، إلى هذا الهدف . ولبعض المجانين مثل هذه الإرادة الحديدية .

والإيحاءات المختلفة ، من أبويننا ومن المجتمع ومما نقرأ ومما تصادف في شبابتنا ، توجهنا وتعين لنا الحسن والقبيح . بحيث نعتقد أننا نحن الذين نعين هذا الحسن وهذا القبيح ، بل قد نتأثر بوحى أحلامنا ونحن نيام ونسلك في الصباح وفق الرجوع التي أحدثها الحلم . ثم نبرر سلوكنا أو نسوغه بالمنطق .

وكل هذا يدل على أن ما نحسبه منطقاً في سلوكنا إنما هو رجوع واستجابات لا شأن للمنطق فيها . ثم هو ، أي « فرويد » ، حين يوضح أن كلامنا ، أي « الذات البشرية » مؤلفة من ثلاثة أقانيم : أقموم الإيد (id) وهو طبيعتنا الحيوانية وغرائزنا البدائية الكامنة ، ثم أقموم الإيجو وهي شخصيتنا الوجدانية الاجتماعية التي ندرى بها ، ثم أقموم السوبر إيجو وهو ضميرنا وما نتطلع إليه من شرف وبر وفضيلة - في كل ذلك لا نستطيع أن نخالف فرويد .

وكذلك عندما يوضح لنا أن ضميرنا إنما يرجع في الأصل إلى مجموعة

المحظورات التي تعلمناها منذ الطفولة : فنضطر إلى التسليم بقوله :
بل كذلك أيضاً لا نستطيع أن نخالفه حين يقرر أننا في الطفولة
نحس دوافع لدية مبهمه تتفاوت بين القوة والضعف ، من الغرام الصريح
إلى الحب الأفلاطوني .

كل هذا قد سلمت به وانتفعت به في مركباتي الذهنية ، ولكنني
اضطرت إلى مخالفته في أساس نظريته وهو مركب أوديب هذا . ذلك
أن فرويد يعتقد أن الطفل يحب أمه حباً جنسياً ويجد لذة جنسية في الرضاع
والتمسح بجسمها . وهو يضطر إلى كظم هذا الحب خوفاً أو حياء من أبيه .
وأن هذا الكظم يدور في دورات مختلفة بعد ذلك في نفسه وهو يفرج عنه ،
بنشاط بدلي كالتسامي ، إلى إيجاد مؤسسات الحضارة أو إلى ألوان أخرى
من الثقافة أو قد يمرض منه .

ولم أستطع أن أقنع نفسي بكل هذا ، ولكنني مع ذلك أسلم
بالعواطف المركبة في الطفل نحو الأب وهي حب وكراهة واحترام وعداء . .
وهي تعزى في بعضها إلى مركب أوديب . فإن الطفل يغار على أمه من أبيه
غيره أظنها غير جنسية أو هي إذا كانت جنسية فإن الإحساس الجنسي
فيها ضعيف حتى لا يكاد يؤبه به ، أي أن مركب أوديب ليس ميزان
النفس البشرية وليس أساس المركبات النفسية في الشباب .

اختلافنا هنا مع فرويد في الدرجة كما هو في الموضوع . فأنا أسلم
بأن خيال الأم أيام الطفولة يلبصق بالطفل سائر حياته حتى ليختار
زوجته من طراز أمه . وهو ينظر إلى رئيسه الأعلى ومن دونه من الرؤساء
نظرته الطفلية إلى أبيه .

ولكن إذا سلمنا بأن هناك دوافع جنسية بين الطفل وأمه فإننا يجب
ألا ننسى ما هو أهم منها ، وأحرى بأن يكون الميزان الذي توزن به

السكينة أو الاضطراب النفسى طوال العمر . ذلك أن تعلق الطفل بأمه والتصاقه بها ، أيام الطفولة ، يجعله يحسن نحوها بأنها مركز أمنه وطمأنينته وهى موثاه ومكان استغائته عند الخوف . ومركب أوديب فى هذا المعنى هو مركب الاحتماء من الخوف والخطر أكثر مما هو مركب الاشتهااء الجنسى . . .

-والأم هنا تمثل المجتمع ، فإذا كانت قد أسرفت فى حماية طفلها فإنه ينشأ عاجزاً كارهاً للاقتحام ينشد لسلامة مهما كانت وضعية . . . وإذا كانت قد أسرفت فى تقييد حريته فإنه ينشأ خائفاً ضائقاً بالصعوبات والأخطار الخفية . وهو ينشد من يحميه أو ما يحميه فى شخص كالزوجة أو الرئيس ، أو فى عمل مستقر قد يكون قليل الكسب .

ولما كانت حياتنا الاجتماعية الاقتصادية حافلة على الدوام بالأخطار ، غير مطمئنة إلى المستقبل ، يكثر فيها الإفلاس والتعطل وخوف المرض والموت والقلق على الوظيفة أو الأبناء ، وخوف المزيمة فى الحب أو المباراة الاقتصادية العامة ، فإن القلق الذى يصيبنا من جميع هذه الحالات يتخذ الأسلوب الذى نشأ عليه مع الأم أيام الطفولة .

ولكن إذا كانت علاقة الأم بطفلها أو مركب أوديب ، قائمة على التوسعة للطفل فى مجال الحرية ، بحيث يتعود الجراءة ويقدم ويخترع اختراعاته الصغيرة . فإنه عندما يكبر يستطيع تحمل الصعوبات ، بل يضحك من الأخطار ولا يخشى عليه من نيوروز أو سيكوز ، أى من مرض عصبى أو عقلى .

ولست أجد فى كل هذا تناقضاً مع بافلوف الذى يرد عاداتنا الذهنية وعقائدنا وأفكارنا إلى تلك الرجوع الانعكاسية الأولى أيام الطفولة ثم ما ينشأ منها من رجوع مكيفة أى معدولة عن أصلها . ويكاد الفرق بين

فرويد وبافلوف يكون سبائياً أو لغوياً في اختيار الكلمة وأسلوب التعبير .
ولكني لست فرويدياً من حيث إيمان فرويد بأن لنا غرائز ثابتة
موروثة في الرغبة في العدوان أو الموت أو في هذا الاتجاه الأخلاقي أو نحو ذلك ،
فقد وصلت بدراساتي الاقتصادية إلى أن التربية وحدها : العائلية ،
والاجتماعية ، هي التي تعين لنا عواطفنا من حب وكراهية واستلطاف . أو
اشمئزاز وكفر ، أو إيمان وخضوع أو تمرد . وظني أن هذا هو الفرق
الأساسي بين فرويد وبافلوف : الأول يكاد يكون غريزياً مائة في المائة
والثاني يكاد يكون اجتماعياً مائة في المائة .

وبكلمة أخرى أقول إن المجتمع يفرض لنا أسلوباً للارتزاق ، فيعين
لنا بهذا الأسلوب ووسائله العواطف التي تسود نفوسنا من غيرة وتحاسد
إلى تعاون وحب ، ومن مباراة تهدف إلى التفوق وتحمل في غضوننا
ما يلابسها من إحساسات القلق ، وطينة تجمعنا في وجهة موحدة
نحو خير المجموع . وعواطفنا التي تحرك نشاطنا هي جميعها ثمرة هذا النظام
الارتزاق الذي يرتب لنا معاني الضعة والشرف والخسة والسمو . ولن نستطيع
أن نفهم معنى الانتحار أو الثأر والأمانة ، أو الحياة الزوجية ، أو قوانين
الزواج أو الطلاق ، إلا إذا رجعنا إلى تلك النظم الأصلية التي يرتزق بها
الناس من صناعة أو زراعة . ونحو ذلك .

وأنا أعد نفسي ممتازاً على فرويد من هذه الناحية التي أعجب من
إهماله لها . وهو إهمال خطير ، لأن سيكولوجية فرويد الغريزية تعد راحة
جامدة إلا من حيث إنها تدعو إلى التفريغ كي يقل الكظم . ولكن هذه
السيكولوجية الاجتماعية التي تعمل العواطف بنظام المجتمع تعد متحركة
ارتقائية لأنها تنشئ ترقية المجتمع لإيجاد العواطف البارة السارة . بل إن
العلاقات الجنسية نفسها ، على ما تنبئ عليه من أساس طبيعي ، تتكيف
بالمجتمع بحيث تكون سوية أو شاذة . لأن الشذوذ الجنسي العدواني مثلاً هو

اجتماعي في أصله ، أو إذا كان هناك أساس طبيعي له فإن هذا الأساس لا يعزل أكثر من أربعة في المائة من الاتجاه العدواني . وكذلك الشأن في مركز المرأة العاطفي من الرجل . فإنها كما أثبتت « مارجريت ميد » ليست على الدوام مطلوبة مغرية مزدانة كما هو الشأن في مجتمعنا . إذ هي قد تكون عكس ذلك كله .

وقد يزدان الرجل ويطلب من المرأة أن تغازله وتحاول استرضاءه واجتذابه . ومع أن المدارس « التحليلية » قد تعددت واختلفت أساليبها فإنها جميعها ترجع إلى فرويد . ولا يكاد يوجد فيها إلا القليل الذي أوجده أدلر بما أسماه « مركب النقص » .

فرويد يعلق النشاط الذهني والاجتماعي والفني والديني إلى « اللبديد » الجنسي الذي نشأ من الكظم السابق أيام الطفولة بحب الأم وكرهه الأب ، أي بمركب أوديب .

وأدلر يعلق هذا النشاط ، أو النشاط الشخصي على الأقل ، بالنقص الكامن الذي نشأ في الطفولة ثم حرك عواطف تحفز وتوجه سائر العمر .

و « يونج » يعلق هذا النشاط إلى الطاقة الطبيعية ، أي الغرائز الأولى ، وأيضاً إلى تراث العقائد والممارسات القديمة وكلمات اللغة والعادات البدائية كالسحر القديم . وهو يرى أن هذا التراث يحيا في الكامنة من وقت لآخر .

لنفرض أن هناك كاتباً ثائراً نحاول أن نحلل ثورته التي ينشد منها الديمقراطية أو مكافحة الاستبداد . فإن من الواضح أن الناس ليسوا سواء في تحمل المظالم أو في الرغبة الحارة في التغيير الاجتماعي ، فلماذا اختص هذا الكاتب بهذه الدعوة ؟

فعند فرويد أن مرجع ثورته « مركب أوديب » لأنه كان يكره أباه وخاصة إذا كان هذا الأب قد أساء إليه في طفولته واستبد به ، وهو حين يكبر يضع الوزير أو الأمير المستبد مكان الأب ويوجه إليه كراهيته وكفاحه .

وعند أدلر أن هذا الكاتب كان أيام طفولته يجد نقصاً في جسمه ، أو شهوة في وجهه . وكان الحجل يحز فيه ويوجهه نحو التردد على الرؤساء الذين أخذوا مكان المجتمع الذي كان يعيره أو يقف منه موقف التعبير أيام طفولته .

وعند يونج أن هذا الكاتب ورث روح البطولة وإحساس العدل من الثقافة البشرية العامة منذ نشأت الحضارات الأولى . فهو يمثل في كفاحه دعوة دينية ونهضة شعبية كثيراً ما تكررت في التاريخ البشري . ومن هنا قيمة الأحلام ، وهي قيمة كبيرة عند فرويد ولكنها أكبر عند يونج ، ولا تكاد تكون لها عبرة كبيرة عند أدلر . وإنما يكبر يونج من قيمة الأحلام لأنها تبرز هذه الثقافات القديمة وقت النوم . فنحن نحلم كما لو كنا نعيش قبل عشرين ألف أو عشرة آلاف سنة ، أى نعيش في بيئة الوحوش المفترسة والغابات المظلمة والكهوف الصخرية والفرع والفرار مع الاستعانة بما يشبه قواعد السحر القديم والكيمياء المنقرضة .

والحق أن في الأحلام شيئاً كثيراً من هذا . وليس لنا الحق في أن نرفض وراثه الأفكار أكثر مما لنا الحق في أن نرفض وراثه الأعضاء . فإننا في أيامنا ننزع إلى الإيمان بوراثة العادة ، كما كان يقول لامارك ، التي تعين وظيفة للعضو في الجسم ، كما نرى في طول العنق عند الزرافة أو الحمل . إذ أن هذا الطول نتيجة لمك العنق كي يصل كل منهما إلى الأعشاب . وكذلك الشأن في الأفكار . فإنها بالعادة والتكرار تورث

وتعود كما لو كانت غرائز . وهذا الحلم العام الذي لا يكاد يخلو منه طفل . وهي السقوط . برهان على أن خوف السقوط من الشجر ، وهو كارثة كان يجب على كل أسلافنا أن يتقوها بالألا يستسلموا للنوم العميق . هذا الحلم التحذيري يدلنا ببقائه عندنا على أننا نرث الأفكار .

لقد كانت دراسة فرويد عندي بمثابة الحميرة التي تفتت في ذهني ، وكانت علة العشرات بل المئات من الرجوع الذهنية . فإنه هو الذي كان يحفزني ، من حيث أدري أو لا أدري ، إلى دراسة المجتمع وكيف يجب أن نتقى الإجرام أو نعين أصول التربية أو نتقى الحرب أو نفكر في الشؤون الجنسية أو نقدر الثقافة أو نصف الشخصية الحسنة أو نحدد المعنى من الذكاء أو البلادة .

وقد ألفت كتابي « أسرار النفس » في عام ١٩٢٧ وأنا متأثر بفرويد . ولذلك لا يتجاوز موضوعه « العقل الباطن » أي الكامنة أو العقل الكامن ولكنني عندما ألفت كتابي الآخر « عقلي وعقلك » في عام ١٩٤٧ كنت قد تجاوزت فرويد إلى غيره من السيكولوجيين ، وإلى شيء من الاستقلال الفكري الذي لم أكن أجرو عليه في عام ١٩٢٧ .

والعالم المتمدن أسعد حالا وأهنأ في عيشه بما حظى من التوجيه السيكولوجي الجديد على يد فرويد وتلاميذه . فإن فرويد حرر الأطفال من القسوة والخوف وأبرز القيمة الكبرى للحياة الطفالية الهائلة في مستقبل العمر أيام الشباب والكهولة ، لأنه أوضح لنا كيف تعيش المركبات وكيف تنشأ الصعوبات التي ربما تؤدي إلى خيبة الشاب أو الفتاة أو إلى انتحار أحدهما بسبب الأخطاء التي تعرضنا لها أيام طفولتيهما ضا من أحد الأبوين . كما أنه أوضح لنا فداحة النتائج التي تنشأ من الكظم الجنسي . وقد عاد كثيرون ممن ذهب وجدانهم وضمحل تعقلهم لتغلب العقل

الكامن عليهم ، عادوا من ظلام الجنون إلى نور العقل بفضل التحليل النفسى .
 وإنه لما يؤلم جميع الذين انتفعوا بعبقرية هذا السيكاوجى العظيم أن
 يعرفوا أنه لم يستمتع بشىء من الرخاء الذى كان يمكن أن يخفف عنه الشيخوخة .
 فإنه عقب الحرب الكبرى الأولى خسر جميع ما ادخره من المال بسبب
 التضخم فى النقد . وفى الحرب الكبرى الثانية طارده النازية حتى مات
 فى لندن بعيداً عن بيته ومدينته .

وترائنا من فرويد هو « التحليل النفسى » وهو لا يمكن أن يموت
 وقصارى ما سوف يحدث أن تتغير الأسماء والعبارات ، لأن صمم التحليل
 النفسى هو الانتقال من الفكرة الكامنة المتسلطة بالعاطفة إلى الوجدان ،
 أى إلى الدراية . وحتى مع اتجاه السيكلوجية فى أيامنا إلى التجربة ، وهو
 اتجاه عظيم القيمة جداً . فإن التحليل سيبقى مفتوحاً للنفس البشرية نفهم
 منه خباياها وتعمق أسسها .

وقد ولد فرويد من أبوين يهوديين فى عام ١٨٥٦ ومات فى عام ١٩٤٠
 منفياً مطارداً من وطنه فيينا عاصمة النمسا . فإن النازيين الذين استولوا على
 النمسا طاردوا اليهود ، وكان فرويد على الرغم من إلحاده معادواً بين اليهود .
 وحفلت عواصم أوروبا فيما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٤٠ بالمناقشات
 الحامية بشأن التحليل النفسى كما حفلت بالانشقاقات والخصومات ، مما دل
 على أن السيكلوجية الفرويدية كانت ولا تزال فى طور المذاهب . ولا
 ينقص هذا من فضل فرويد .

ولما نزل فى هذا الطور لم تستقر . ولكن فرويد كان ، كما قلت ،
 بمثابة الخميرة التى بعثت سلسلة من الأفكار لما تنته حلقاتها . وهذا هو
 أكبر فضله فى تربيتى .